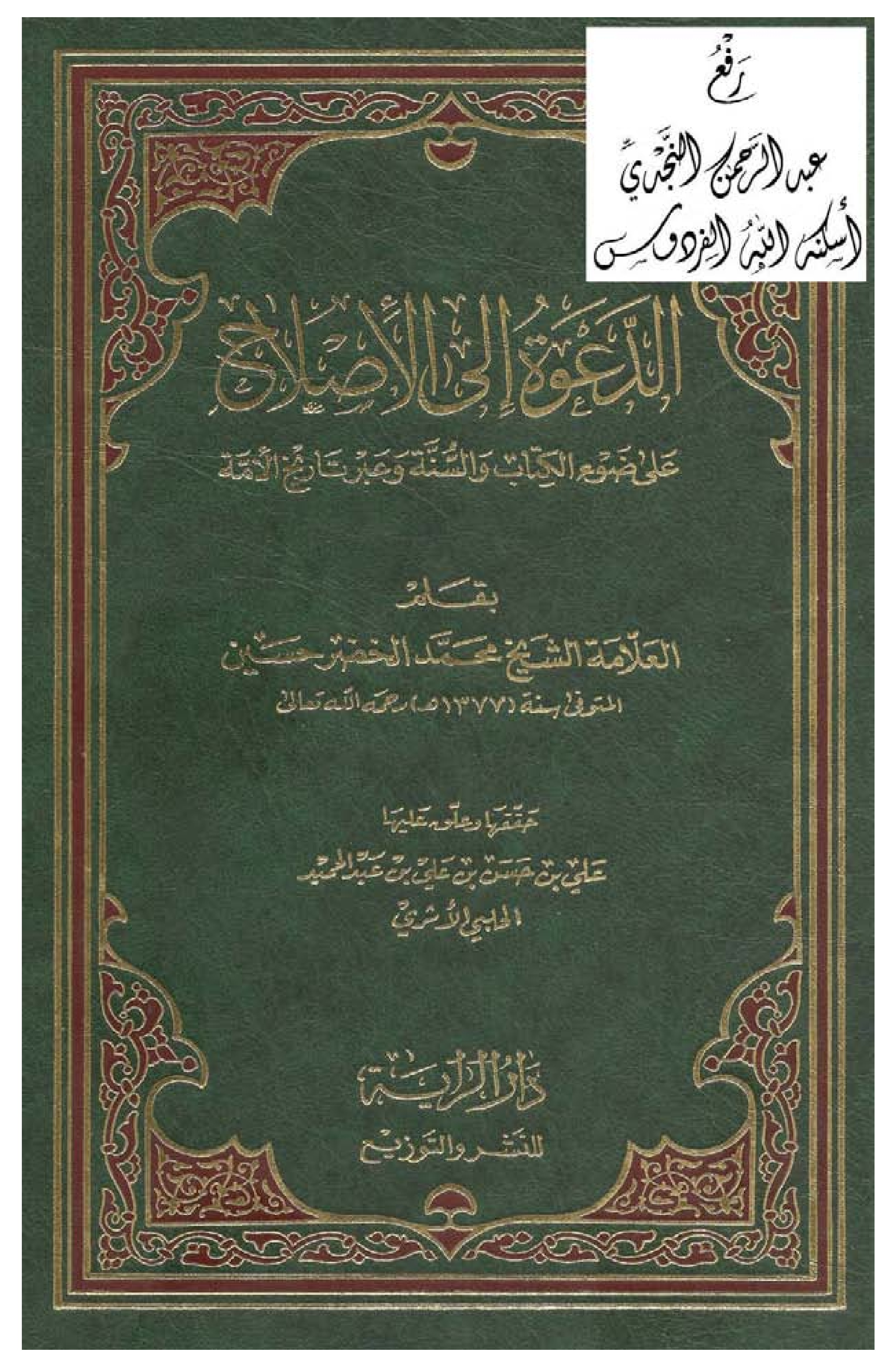

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
الدعوة إلى الإصلاح
على ضوء الكتاب والسنة وعبر تاريخ الأمة
بقلم
العلامة الشيخ محمد الخضر حسين
المتوفى سنة (١٣٧٧هـ) رحمه الله تعالى
حققها وعلق عليها
علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري
دار الراية
للنشر والتوزيع

الدعوة إلى الإصلاح

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ.

ح دار الراية للنشر والتوزيع ١٤١٧هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

حسين، محمد الخضر

الدعوة إلى الإصلاح/ تحقيق علي حسن علي. - الرياض

٣٤٤ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٦-٢٩-٦٦١-٩٩٦٠

١- الدعوة الإسلامية أ- عبدالحميد، علي حسن علي (محقق)

ب- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٧/١٥٤١

رقم الإيداع: ١٧/١٥٤١

ردمك: ٦-٢٩-٦٦١-٩٩٦٠

دار الراية

للنشر والتوزيع

الرياض: الربوة _ شارع عمر بن عبدالعزيز _ هاتف ٤٩١١٩٨٥

فاكس ٤٩٣١٨٦٩ ص.ب (٤٠١٢٤) الرياض (١١٤٩٩)

جـــدة: حي الجامعة _ جنوب شارع باخشب _ هاتف ٦٨٨٥٧٤٩

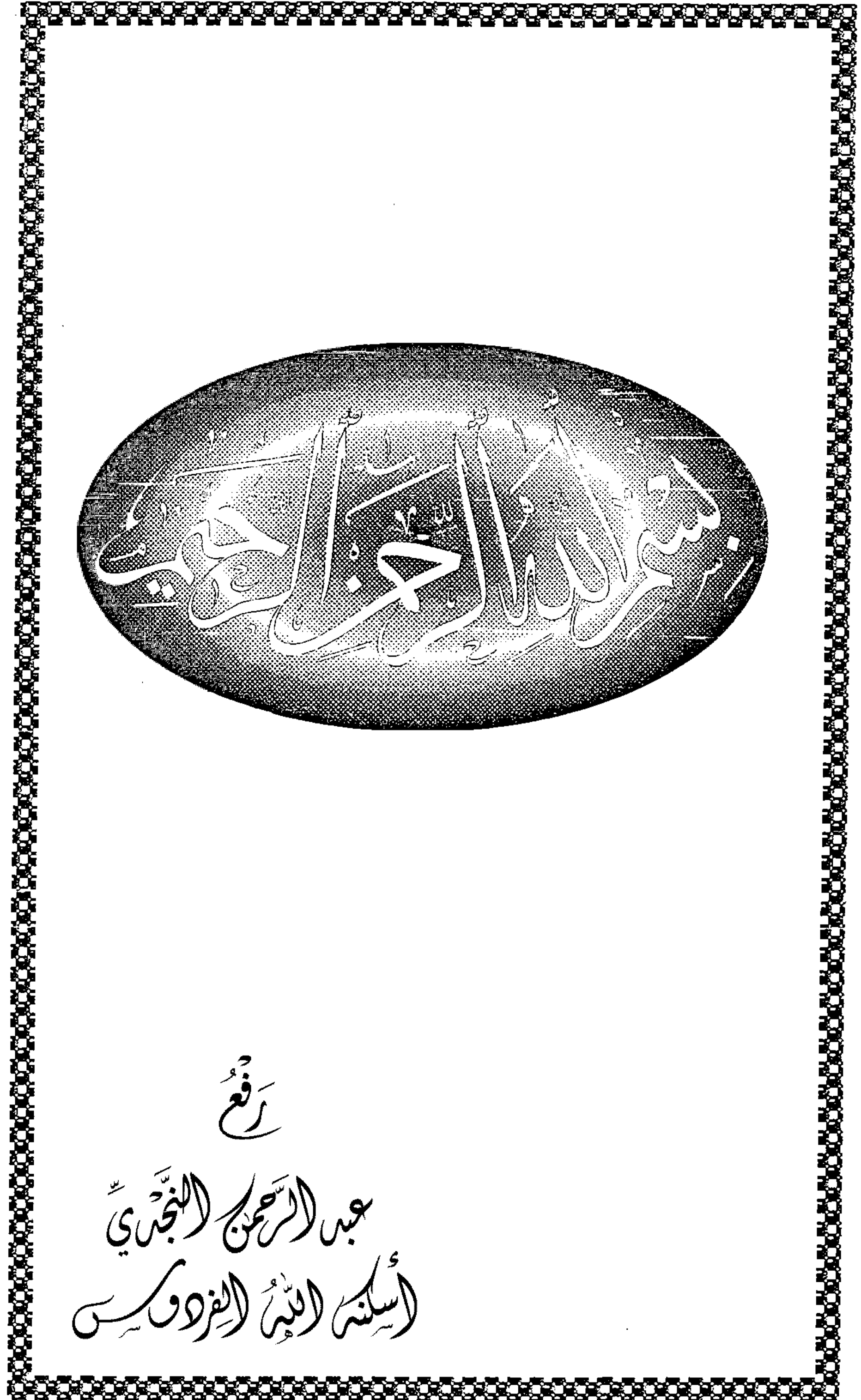
الدعوة إلى الإصلاح

على ضوء الكتاب والسنة وعبر تاريخ الأمة

بقلم
العلامة الشيخ محمد الخضر حسين
المتوفى سنة (١٣٧٧هـ) رحمه الله تعالى

حققها وعلق عليها
علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد
الحلبي الأثري

دار الراية
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ، ومِنْ سيِّئات أعمالنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له.

وأشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له.

وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ.

أمّا بعد:

فإنَّ الدعوةَ إلى اللهسبحانَه وتعالى مقامٌ عظيمٌ مِن مقامات الإيمان والعمل الصالح.. وكيف لا تكونُ كذلك؛ واللهُ ربُّنا سبحانه يقولُ: ﴿وَمَن أَحْسَنُ قولاً ممّن دَعَا إلى الله وعمِلَ صالحاً وقال إنَّني من المسلمين﴾[فُصلت: ٣٣]

ومِن أبواب الدعوةِ الى الله تعالى: الدعوةُ إلى إصلاح ما فَسَدَ مِن أخلاق الناس، وإصلاح ما ساءَ حالُهُ مِن آدابهم.

ولقد كَثُرت في هذا الزمان - بل منذ أزمان - مناهجُ

المصلحين، وتعدَّدت طرائقُ الدُّعاة والمُرشدين... بحيثُ أشكل على الناظرِ إليها ما هو الحقُّ منها ؟!

فَحَصَل اخْتلافٌ، وتدابُرٌ، وتناحُرٌ، وتشتُّتٌ، وتَفَرُّقٌ، مما أدَّى الى إضْعاف الدعوة، ووهاءِ الدُّعاة... واللهُ جلّ وعلا يقولُ: ﴿ولا تَنازَعُوا فتفشَلوا وتَذْهَبَ ريحكُمْ﴾[الأنفال : ٤٦].

وقَبْلَ نحوِ نصف قرنٍ من الزمان؛ تَنَبَّه بعضُ أهل العلمِ إلى هذا الخَطَر الدَّاهم، وظَهَرَ لهم شَرَرُهُ، وانْكَشَفَ لهم ضَرَرُهُ؛ فَوَعَظ، وَذَكَّر، وأمر، ونهى، وخَطَب، وناظَر، وكتب، وألَّفَ...

ومن هؤلاء العُلَماء: العلاَّمةُ الشيخُ محمدُ الخضر حُسَين التونُسي؛ المتوفى سنة (١٣٧٧هـ)؛ حيث كتب رسالةً علميّةً دعويّةً نافعةً، عنوانُها: «الدعوة إلى الإصلاح»؛ وهي رسالةٌ حَسَنَةٌ لطيفةٌ، أقامها على فُصولٍ متعدّدة مترابطة؛ كلُّ فَصْل منها يَنْفُذُ إلى الذي يليه، كَسِلْسِلَةٍ آخذ بعضُها برقاب بعضٍ.

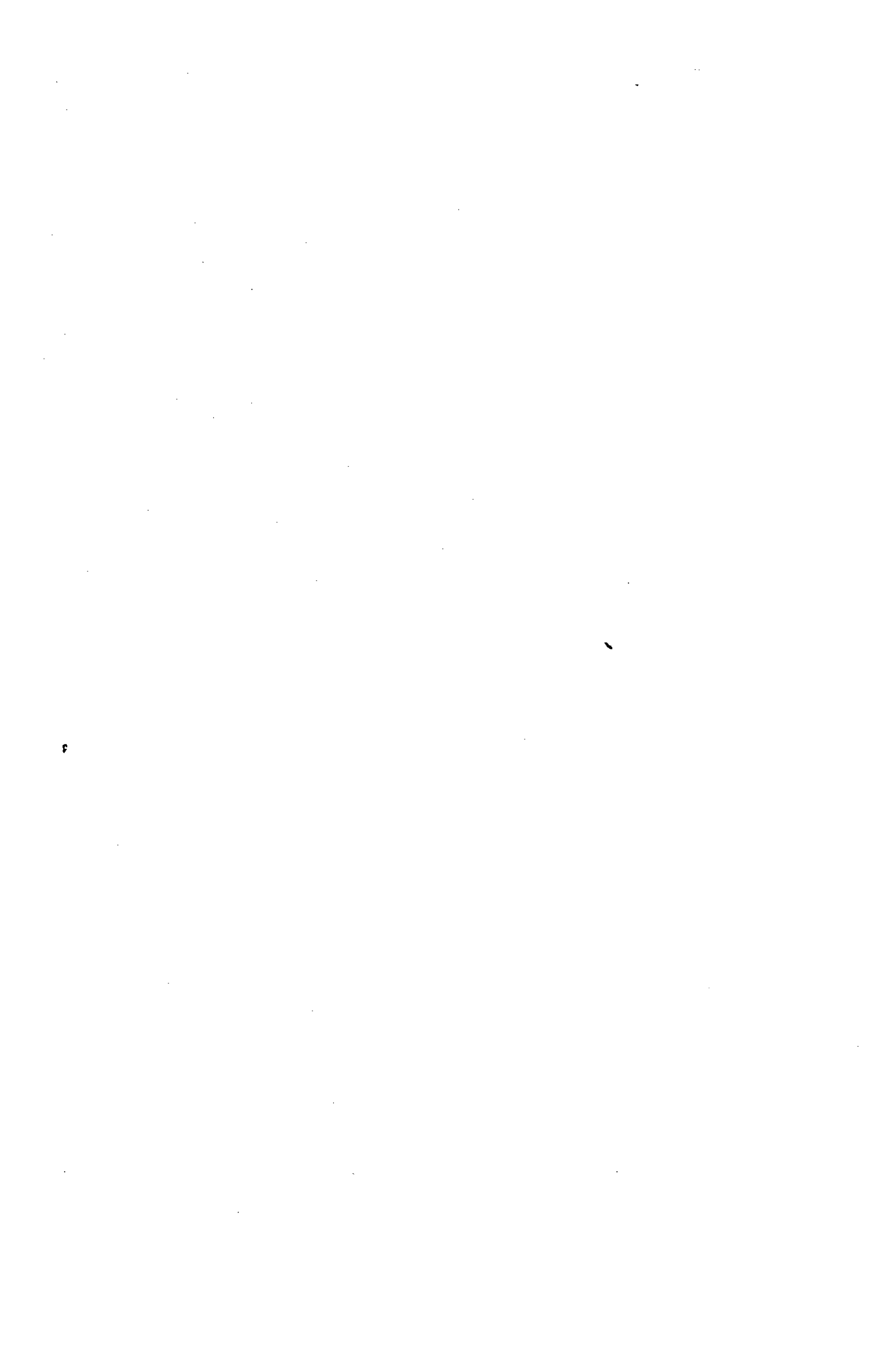
فلمّا رأيتُ هذه الرسالةَ على هذا المستوى، وبهذا

الحُسْن البديع: رأيتُ لزومَ إعادة نشرِها، للإفادة بها ومنها.

فالله أسألُ السَّدادَ في القَولِ والعملِ، وأن يرزقَني الإخلاصَ في سائر عَمَلي، إنه سميعٌ مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب
أبو الحارث علي بن حسنِ بن عليٍ بن عبدالحميد
الحلبيُّ الأثريِّ
عفا الله عنه بمنه
يوم السبت: لثلاثة أيام خَلَوْن من شهر ربيعِ
الثاني سَنة (١٤١٧ هـ)
الزرقاء - الأردن



هذه الرسالة

● طُبعت طبعتَها الأُولى قبل وفاة مؤلِّفها بأكثر من عشر سنوات؛ في المطبعة السلفية/ القاهرة.

● تمتازُ بشمولها المعرفيِّ لمسائل الدعوة وأهمِّيَّتها؛ بدءاً من (الحاجة إلى الدعوة)، وبيانها (في نَظَر الإسلام)، ولزوم (المبادرة إلى الدعوة)، وأهمية (التعاضد على الدعوة).

ثم تطرّق -بَعْدُ- إلى (مَن الذي يقومُ بالدعوة؟)، وأنَّ من أهمّ صفاته: (الإخلاص في الدعوة)، ومعرفة (طرق الدعوة)، ومِن ثَمّ الالتزام بـ(أَدبِ الدعوة)، والوقوف على (سياسة الدعوة).

وبعد ذلك بحث أمراً مهمّاً جدّاً، وهو متعلِّق بـ(الإذن في السُّكوت عن الدعوة)، و(علل إهماله)، و(آثار السكوت عنها).

وقد ختم المصنِّفُ - رحمه الله- رسالتَه بذكر أهمِّ (ما يُدْعى إلى إصلاحه)، وما يُبْنَى على ذلك من واجباتٍ.

● أُسلوبُها الإنشائيُّ الأدبيُّ: سِمَةٌ ظاهرةٌ فيها لكلِّ مُطَّلعٍ عليها.

• جَهدَ المصنِّفُ - رحمه الله - أنْ يبنيَ رسالتَه على نصوص القرآن والسنّة، ورَبْط ذلك بتاريخ الأُمَّةِ، وسِيَرِ رجالاتها الأبرار.

• يظهرُ لقارئ الرسالة قَدْرُ الأسى والحسرةِ اللّذَيْنِ اعتَصَرا قَلْبَ المصنِّفِ وهو يَكْتُبُها ويُؤَلِّفُها.

• الرسالةُ جامعةٌ في مادّتها، ماتعةٌ في أُسلوبها وطريقتها.

مُوجَزُ ترجمةِ المؤلِّف

• اسمُهُ:

محمد الخَضِر بن الحُسَين بن عليٍّ بن عُمر الحَسَني التونُسيّ.

• مَولِدُهُ، ونشأتُه:

وُلد في قَفْصَة[1] . . . مِن مُقاطعة الجريد في بلاد تُونُسَ سنة (١٢٩٣ هـ)، ويُقال: إنَّ أصلَه مِن الجزائر.

انتقل إلى تونُسَ مع أبيهِ سنة (١٣٠٦ هـ).

دَرَسَ في جامع الزيتونة، وتخرَّج بهِ.

• أعمالُه ومناصِبُهُ:

تولّى التدريس في جامع الزيتونة بعد تخرُّجه فيه، أَنْشَأَ مجلّةَ «السعادة العُظمى» سنة (١٣٢١ هـ)، واستمرَّتْ إلى سنة (١٣٢٣ هـ).

وَلِيَ قَضَاءَ بَنْزَرْتَ سنة (١٣٢٣هـ)، ثم طلبَ

---

(١) وفي «الأعلام» : «نفطة» !!

الاستعفاء مِن ذلك.

• رحلاته:

رحل إلى دمشقَ سنة (١٣٣٠هـ)، ومنها إلى الأستانة.

ثم عاد إلى تونسَ بعد ذلك بسنةٍ واحدةٍ، فكان من أعضاء(لجنة التاريخ التونسي)

- ثم رجع إلى المشرق، مستقرّاً في دمشق.

- تولّى التدريس في المدرسة السلطانية بدمشق، وذلك قُبيلَ الحرب العالمية الأُولى.

- سَافَرَ إلى برلين مع بعض المشايخ، في رحلةٍ علميّةٍ.

- بعد احتلال الفرنسيِّين سوريّةَ انتقل إلى القاهرة سنة (١٣٠١ هـ)، ليعملَ مُصَحِّحاً في دار الكتب المصريّة، واستمر في عمله هذا نحواً من خمس سنوات.

- ثم تقدّم لامتحان (العالميَّة) في الجامع الأزهر، فنال شهادتَها، ثم درّس في الجامعَ الأزهر نفسهِ.

- أنشأ جمعيّة الهداية الإسلامية، وتولّى رئاستَها، وتحريرَ مجلّتها.

- ثم ترأّس تحرير مجلّة «نور الإسلام»، وكذا مجلّة «لواء الإسلام»، سنواتٍ عدّةً

- اختِيرَ عُضْواً في هيئة كِبار العُلَماء.

- عُيِّن شيخاً للأزهر أواخر سنة (١٣٧١ هـ)، إلى أنْ استقالَ سنةَ (١٣٧٣ هـ).

• مؤلّفاتُهُ:

- «حياة اللغة العربية».

- «الخيال في الشعر العربي».

- «مناهج الشرَف».

- «طائفة القاديانية».

- «مدارك الشريعة الإسلاميّة».

- «الحُرِّيّة في الإسلام».

- (نَقْض كتاب «الإسلام وأصُول الحُكْم»).

- «خواطر الحياة»، وهو ديوانُ شعره.
- «بلاغة القُرآن».
- «محمّد رسولُ اللهﷺ».
- «السَّعادة العُظمى».
- «تونُس وجامع الزيتونة».

• وفاته:

تُوُفِّي في القاهرة في ١٢ رجب سنة (١٣٧٧ هـ).

ولقد أوصى أَن يُدْفَنَ في تُربةِ أَحمد تَيْمور باشا- وهو صديقُهُ-، ونُفِّذت وصيّتُهُ.

• مصادر ترجمتهِ:

- «الأعلام»(٦ / ١١٤) لِلزِّرِكْلِيِّ.
- «معجم المطبوعات»(١٦٥٢) لِسَرْكيس.
- «معجم المُؤلِّفين»(٩ / ٢٧٩).
- «المستدرك على مُعْجَم المؤلّفين»(ص ٦٣٥)، -كلاهما لِعُمَر رضا كحّالة-.

الدعوة إلى الإصلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي رَفَعَ منازلَ العُلَماءِ المُصْلحين، وأعلى كلمتَهم في نُفوس قومٍ مُخْلِصين.

والصلاةُ والسلامُ على مَن أبْلَغَ فرائضَ هذا الدينِ وسُنَنَه، ودَعا إلى سَبيلِ ربِّه بالحكمةِ والموعظةِ الحَسَنَة.

ثم الرِّضا عن آلهِ وصَحْبه الّذين أُخرِجوا للنَّاس في أحْسَنِ تقويم، وهَدَوُا الأُمَمَ بالحُجَّة والأُسلوب الحكيم.



مقدمة

يبحثُ هذا الكتاب عن العِلَلِ التي لبَستِ الأُممَ الإسلاميةَ وقعدت بها في خُمول، حتى ضربت عليها الدولُ الغربيةُ بهذه السُّلطة الغاشمة؛ ويوردون في نتيجة بحثهم أسباباً شتّى[1].

وأنت إذا تدبَّرْت هذه الأسبابَ؛ وجدتَ السبب الحقَّ منها يرجعُ إلى تهاون الأمم بتعاليم الشريعة، ونكْثِ أَيديهم من المشروعات[2] التي عُهدت إليهم بالقيام عليها.

والعلّةُ في ضعف هِمَمِهم وقلّة إقبالهم على ما أرشد إليه القرآنُ -من وجوه الإصلاح ووسائل المَنَعَة والعزّة- إنما هي تقصيرُهم في التواصي بالحقّ[3]، وعدمُ

---

(١) فبعضهم يعزو سبب هذا الخمول والذلّ إلى المال والاقتصاد، وبعضهم يعزوه إلى القوة والسلاح... وبعضهم إلى غير هذا وذاك؛ من أسبابٍ ليست هي الأصل في سبب الداء والبلاء.

(٢) من الدعوة إلى الله، والالتزام بأحكامه، والعمل بأوامره، والاجتناب لنواهيه وزواجره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٣) والله سبحانه يقول: ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر: ١-٣].

استقامة زعمائهم[1] على طريقة الدعوة والإرشاد.

هذا ما استَثَار الهمّة، وأخذ برأس القلم يجرُّهُ إلى البحث في مشروع الدعوة إلى الإصلاح، لعلّه يَبسط من حقائقه وآدابه جُمَلاً كافيةً، ويملك بتأييد الله زِمامَهُ.

□□□□□

---

(١) ومن أعظم أسباب هذا الانحراف -في الأصل- عدم استقامة الشعوب على طريق الصلاح؛ والله عز شأنه يقول: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾[آل عمران: ١٦٥]، ويقول: ﴿إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[الرعد: ١١].

الفصل الأول :

الحاجة إلى الدعوة

في فطرة الإنسان قُوَّةٌ يعقل بها طُرُقَ الصلاحِ والفساد ويفقَهُ بها الحقَّ والباطل، ولكنَّ هذه القوةَ العاقلةَ لا تستقلُّ وحدَها بتمييز المعروف من المنكر، وليس من شأنها أن تطَّلِع على كلِّ حقيقة، ولا أن تُدبِّر أعمالَ البشر على نظامٍ لا عِوَجَ فيه؛ فإنها -وإن بَلَغَتْ في الإدراك أشُدَّها- قد تنبو عن الحقِّ، ويعزُبُ عنها وجهُ المصلحة، ولا تهتدي إلى عاقبة العمل؛ وربما ألقت على الحسنة نظرةً عَجْلى فتحسَبُها سيِّئَةً، وقد يتراءى لها الشرُّ في شَبَهٍ من الخير فتتلقّاه بالقَبول[١].

وقد تصدّى رجالٌ من أصحاب هذه القُوى العاقلة للبحث في نشأة الخليقة، فكانت عاقبةُ بحثهم أن خرّوا للأحجار أو الكواكب أو الحيوان سُجَّداً ![٢].

---

(١) لأن هذا (القوة العاقلة) لاينضبط سيرها، ولا يستقيم أمرها إلا بالشرع الحكيم، وهديه العظيم.

(٢) كالفلاسفة، والمناطقة، والمتكلّمة ! فقد ضلُّوا من حيث لا يشعرون، وانحرفوا من حيث لا يحتسبون.

وتصدَّى آخرون لإنشاء نُظُمٍ اجتماعية[1]، فوضعوا ما يَذْهب بالجماعة في غيرِ طريقٍ، ويكبو بها في خَسَارٍ.

وأمثلةُ هؤلاء مشهودةٌ حديثاً، ومضروبةٌ في كتب التاريخ قديماً.

وليس القانونُ الذي يُسيغ المقاتَلَةَ الشخصيَّةَ -المبارزةَ- إلا صُنْعَ نفس عريقة في الهَمَجِيّة.

وليس القانونُ الذي يُساعد الفتياتِ على إراقة ماء الحياء والعزّة[2] من وجوههنَّ، والزهد في صيانة أعراضهنَّ إلا وليدَ عقلٍ غَمَرَتْهُ الغباوةُ، أو حفَّتْ به الشهواتُ من كل ناحية.

وأراد ذو عقلٍ كبيرٍ -وهو الحجّاجِ بن يوسف[3]- مُعاقَبَةَ شخصٍ على جريمةٍ ارتكبها بعضُ ذوي

---

(١) كالشيوعية، والاشتراكية، والماسونية، والعلمانية، والرأسمالية.

(٢) وذلك بنزع الحجاب الذي أمر الله تعالى به؛ تهتُّكاً، وانحرافاً، وشهوةً عارمةً، وضلالاً بعيداً.

(٣) هو - على كبر عقله - عنيدٌ جبار؛ قال الحافظُ الذهبي في ترجمته من «سير أعلام النبلاء» (٤/٣٤٣) بعد كلام: «... فنسبُّه ولا نُحبُّه، بل نبغضه في الله؛ فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان، وله حسنات مغمورةٌ في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله...».

قرابَتِه، فدافَعَهُ بقولهِ تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، فما كان إلا أنِ استمع للآية وارْعَوى!

وإذا وقف صاحبُ القوة العاقلة على وجه الخير أو الشّرِّ؛ فقد يُساوِرهُ الغضبُ، أو تُسيطر عليه اللذّةُ، فيترك الصالحَ أو يأتي المنْكَرَ، ولا يُبالي بما يُوقِعُه به التهاونُ بالصالحاتِ، أو ارتكابُ المُنْكَراتِ من شقاء بعيد.

وقد تخلُصُ النفوسُ من تخبُّط الغضب أو أَسْرِ الشهَوات، ثم لا يستطيعُ أصحابُها البقاءَ دون أن يَنْشَبَ بينهم نزاعٌ؛ فإنَّ المداركَ تتفاوتُ؛ إمّا بِحَسَب فطْرَتها، وإمَّا بالنظر إلى استعدادِها المُكْتَسَب من التجارِب، فترى الرجُلَ يستحسنُ عينَ ما يستقبحُه غيرُه[1].

بل النفسُ الواحدةُ قد يبدو لها الأَمرُ حسناً في حال، فإن لم يُوافِقْ غَرَضَها في وقتٍ آخَرَ انقلب في رأيها شيئاً نُكْراً.

---

(١) وذلك لتَفَاوُت العقول، وتباين المدارك؛ فجاء الشرع لدفْعِ هذا التفاوت، وصَقْلِ هذا التَباين؛ ﴿فَإِنْ تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾.

وانظر كتابي «العقلانيون: أفراخ المعتزلة العصريون» وهو مطبوع.

وكثيراً ما يشتملُ الأمرُ في الواقع على وَجْهَيِ الإثم والمنفعة، فيريدُ بعضُهم جلْبَ منفعته فيسعى في تقريره، ويرغبُ آخرُ في درْءِ مفسدته فَيَلْوي عنه صَفْحاً.

وربما يشاهدُ الإنسانُ الحادثةَ تنزل بغيره فيقضي عليها برأيٍ، ولو عَرَضَتْ له في نفسهِ وأدرك مقدارَ تأثيرها لعاد إلى الحُكم عليها بأشدَّ مما قضى به أوّلاً أو أدنى.

ولّما كانت الأَنْظارُ تَقْصُرُ والأَهواء تتغلّب، والعقولُ تتفاوت وتختلف؛ اشتدَّت حاجةُ الناس إلى مُصلِحٍ إلهيٍّ يُطلِق نفوسَهم من قيود الأوهام، ويهديهم السبيلَ إلى ما فيه خيرٌ، ويُنذرهُم عاقبةَ الانهماك في اللّذائذِ، ويُعلّمهم كيفَ يتحامَوْنَ الفتنةَ إذا اختلفوا.

هذا وجهٌ من حكمةِ بعثةِ الأنبياءِ عليهم السلام، وصعودهم بالناس إلى مراقي السعادةِ، وإقامتِهم القضاءَ على أُسُسٍ عادلة.

فبهذه الدعوة الإلهية لَبِست النفوسُ أدباً ضافياً، وأخذ المجُتمعُ سُنَّةً منتظمةً، وبَصُرَت العقولُ بحقائقَ كانت غامضةً.

وإذا كان للشرائعِ السماويةِ مزيّةُ تقويمِ النفوس، وإنارة البصائر، وفَتْحِ طرق الحكمة؛ فإنّ نصيبَ الإسلام من هذه المَزِيَّةِ أوفرُ وأجلَى[1].

وما برِحَ الناسُ -بعد انطواء عهد النبوة- في حاجةِ إلى من يُعَلِّمُهُم إذا جهلوا، ويُذَكِّرُهُم إذا نَسُوا، ويُجادلُهم إذا ضلُّوا، ويكُفُّ بأسَهم إذا أضَلُّوا.

وإذا سَهُل عليك أن تُعَلِّم الجاهلَ وتُذَكِّرَ الناسيَ؛ فإنّ جدالَ الضالِّ وكفَّ بأسِ المُضِلّ لا يستطيعُهما إلاّ ذو بصيرةٍ وحكمةٍ وبيانٍ[2].

وما بَرِحَتِ العصور تلدُ - من الضَّالِّين المعاندين، والمضلِّين المخادعين - مَن يُحاولون إثارةَ الفتن، وإطلاقَ النفوس من قيد الأدب والعفاف.

وفي كُلِّ عصر لا يفقد هؤلاء أُولي عَزْمٍ وإِخْلاصٍ، يَقْرَعونهم بالحجة، ويهتكون الستارَ عن مكايدهم؛ فيزهَقُ باطلهم ، وترهَقُ وجوهَهم قَتْرةُ الخيبة والخِذلان.

---

(١) لأنَّه خاتمة الرسالات، وذروة الكمالات.

(٢) في هذا بيان أن مناظرة أهل البدع لاتكون إلا من اختصاص أهل العلم أو طلابِه الأقوياء، حَسْبُ.

ولا تَنْسَ أنَّ المضلِّين في هذا العصر قد تهيَّأ لهم من وسائلِ الدعايةِ[1] ما لم يتهيَّأ لإخوانهم الغابرين:

فمنْ نَوادٍ تُفْتَح، وصحف تُنْشَر، وجمعيَّات تُعْقَد، وأموالٍ تُنْفَق، وجاهٍ يُبذَل، وسُلُطاتٍ تُمالئُ وتستبدُّ !!

وهذا ما يجعلُ الدعوةَ الرشيدةَ من أفضلِ الواجباتِ وأحمدِ المَسَاعي، وهذا ما يقضي على حُكماء الأُمَّة بأن يُعدّوا للدَّعوة ما استطاعوا من قوَّةٍ، ويكسروا شوكةَ هذه النُّفوس المحْشُوّة بالغوايةِ والشهواتِ، قبلَ أن تبلغ أمنيتَها.

وهناك طائفة لم تفسُقْ عن جحودٍ وتمرُّدٍ، وإنما أُتيَتْ مِن قِبَل الجهل وعدم صفاء البصيرة، فوضعت بجانب حقائقِ الإسلام ما يُبرَّأ منه الإسلامُ !!

ومن أيدي هؤلاءِ نزلَتِ البِدَعُ، ومن ألسنتهم هبطتِ المزاعِمُ والخرافاتُ، ومِنْ آرائِهم دخل في الكتاب والسنة ضَرْبٌ من سوءِ التأويلِ[2].

---

(١) والإعلام؛ من صحفٍ، ومجلات، أو بَثّ للأفكار، أو إشاعات!!

(٢) والتأويل قائمٌ على السوء، والضلال والانحراف.

وحاجتُنا إلى تقويمِ أصحابِ هذه البِدَعِ[1]: تُضاهي حاجَتَنا إلى إنقاذ النفوسِ الزاكية من أن تقعَ في حبائل أُولئك الذين يضلُّون عن سبيل الحياة الغيبيَّةِ، ويبغونها عِوَجاً.

□□□□□

(١) قارِنْ بكتابي «علم أُصول البِدَع» (ص٣٠٩).



الفصلُ الثاني :

الدعوةُ في نَظَر الإسلام

للدعوة الأَثرُ الكبيرُ في فلاح الأُمم، وتَسابُقِها في مضمار الحياة الزاهرة، وهذا ما يجعلُها بالمكانة السامية في نَظر الشارع الحكيم، وقد أَلقى عليها الإِسلامُ عنايةً شديدةً فَعَهِدَ إلى الأمة بأنْ تقوم طائفةٌ منها على الدعاء إلى الخير، وإسْداء النصيحة للأفراد والجماعات؛ قال تعالى: ﴿ولْتكنْ منكم أُمّةٌ يَدْعُونَ إلى الخير ويأْمُرون بالمعروفِ ويَنْهَوْن عن المنكر وأُولئك هُمُ المُفلِحون﴾(١).

فالآيةُ ناطقةٌ بأنَّ الدعاءَ إلى الخيرِ، والأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكَرِ: فريضةٌ مُلقاةٌ على رقاب الأُمَّة،(٢) لا تَخْلُصُ من عُهدتِها؛ حتى تُؤَدِّيَها طائفةٌ على النحو الذي هو أبلغُ أثراً في استجابة الدعوة، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٢) انظر كتابي «الدعوة إلى الله: بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي» (ص١١٤-١١٧)؛ ففيه بيان الوجه الصحيح في الاستدلال بهذه الآية الكريمة.

والدعوةُ إلى الخير -كسائر فروض الكفاية- يُوجَّهُ خطابُها إلى الأمة بقصد إفهامهم وإعلامِهم.

ومناطُ التكليفِ والالْتزامِ؛ إنما هو طائفةٌ يتّفق أهلُ الحَلِّ والعَقْد على تعيينها، أو تتقدّم إليه من تِلْقاء نفسها.

وإذا قُلنا: إن الخطابَ بفرض الكفاية والإعلامَ به يتوجَّهانِ إلى الأُمة؛ فإنّما نريد من الأُمة: القادرين على القيام به خاصّةً، وهؤلاء همُ الذين تحقُّ عليهم كلمة العذاب حيث لا تنهضُ به طائفةٌ منهم، فلا جُناح على مَنْ لا يستطيعُ الدعاءَ إلى خيرٍ أو الدفاعَ عن حقٍّ، إذا سكت المستطيعون إليه سبيلاً.

ولو ضلَّ قومٌ عن سبيل الخير، أو جهِلوا معروفاً، أو ركبوا منكراً، وقامت طائفةٌ تدعوهم أو تأمرهم أو تنهاهم-بأسلوب ليس من شأنه التأثيرُ في أمثالهم- لَبَقيَتْ هذه الفريضةُ مُلْزَمةً في أعناق الذين يستطيعون أن يَنْفُذوا بألمعيَّتهم إلى نُفُوس الطوائف، ويَصُوغوا إرشادَهم وموعِظَتَهم على الطَّرْزِ الذي تألَفُهُ نفوسُ الطائفة التي يُحاوِرُونها.

وليستِ القدرةُ على الدعوة: في قُوَّتَيِ الحُجَّة والبيان وحدَهما، بل تأخذ معَهُما كلَّ ما يتوقّفُ عليه إقامةُ الدعوة[1]؛ كوسائلِ نشرِها في بيئة نَفَقَتْ فيها سُوقُ الفسوقِ، أو خَفَقت فيها ريحُ الإلحاد؛ فهذه الفئةُ الموعَزُ إليها بالدعايةِ إلى غير هدىً وغير أدبٍ؛ قد ملكت لنشرِ باطِلِها وسائلَ أهمُّها الإنفاقُ.

وإذا وجب على الأمَّة أن تُميطَ هذه الدعايةَ عن طريقها، فخطابُ هذا الواجب يتوجَّه إلى الكُتَّابِ والخُطَباءِ، ثم إلى كلِّ مَن له شيءٌ من القُدرة على البذلِ في سبيل الدعوة، كفتحِ نوادٍ لإلقاء المحاضرات، وإنشاء صُحُف، أو مساعدة صحف تُظَاهِرُ الدعوةَ بإخلاص.

رَفَعَ كتابُ الله منزلةَ القائمين على خطّة الإرشاد؛ ومن آياته المحكمات قولُه تعالى: ﴿كنتم خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس تأمُرون بِالمعروف وتَنْهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله﴾،

---

(١) مما هو شرعيٌّ في أصله، غير مخالفٍ في تطبيقه.

ولِلأخ الفاضل الشيخ عبدالسلام بن برجس -وفّقه الله- رسالة لطيفة، عنوانها: «الحجج القوية في إثبات أن وسائل الدعوة توقيفية»، وهي مطبوعة.

فالآيةُ تُومىء إلى أن المخاطَبينَ بها يُفَضَّلون على سائر الأُمم، وإنما نالوا هذه الأفضليَّة بمَزِيَّةِ الأمرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ، والإيمان بالله.

ومَنْ يُطْلِقِ النظرَ فيما يتجشَّمُه الآمِرون بالمعروف، والناهون عن المنكر من أخطار، وما يُلاقونه من أذىً، ثمَّ لا يلْوُون أعنَّتهم إلى راحةٍ، ولا يحملون أنفسَهم على مُصانَعَةٍ أو إغضاءٍ: يعرفْ أنَّ هنالك بصائرَ ساطعةً، وعزائمَ متوقِّدةً، وهِمَماً ينحطُّ أمامَها كلُّ عظيمٍ؛ أفلا يكون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر خيرَ أمَّة أُخرجت للناس ؟!

نوَّه التنزيلُ بشأن المصلحين، ثم أنحى باللعنةِ على من يُؤْتَون الحكمة، ولا يبسُطون ألسنَتَهم ببيانها، فقال تعالى: ﴿إنَّ الذين يكتمون ما أنْزلنا من البيِّنات والهُدَى من بعدِ ما بيَّنَّاه للناس في الكتاب أُولئك يلعنُهُمُ اللهُ ويلعنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾[1]، فالآيةُ نزلت في وصفِ حال فريقٍ من غير

(١) سورة البقرة: ١٥٩.

المسلمين[1]؛ ولكنَّ حكمَها -وهو استحقاقُ اللَّعنِ- لا يقف عند حدِّهم، بل يجري على كلِّ مَنْ درس آياتِ الله، أو قبضَ قبضةً من أثَرِ هدايتِه، ثم أمسَكَ عن بيانها؛ والناسُ في جهالة أو حَيْرَة يَتخبَّطون[2].

وكذلك يقولُ عُلَماءُ الأصول[3]: إنَّ مُقتبسَ الأحكامِ مِنَ الآياتِ لا يقتصرُ على سبب نزولِها، بل يمشي في تقريرِ معناها على قَدْرِ ما يسَعُهُ عُمومُ لفظِها.

---

(١) رواه الطبري (٢٣٧٠) من طريق ابن إسحاق في «السيرة»، (٢/ ٢٠٠-ابن هشام) بسنده عن ابن عباس.

وفي سنده محمد بن أبي محمد؛ وهومجهول.

وانظر «الدر المنثور» (١/ ١٦١).

(٢) قال الإمام ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٦٦):

«هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءَت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله».

(٣) وهو ما يعبِّرون عنه بقولهم: «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب».

قال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» (ص١٣٧-تهذيبه): «اختلف أهل الأصول؛ هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟ والأصح عندنا الأول؛ وقد نزلت آيات في أسباب، واتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها».

وانظر «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٣٨)، و«مقدمة في أصول التفسير» (ص٤٤)، كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

الحقائقُ التي لا يَسُوغُ كِتمانُها؛ هي ما ينبني على العلم بها أثرٌ في صحَّة اعتقادٍ، أو أدبِ نفسٍ، أو استقامة عملٍ؛ فإنْ كانت من قَبيلِ ما هو من مُلَحِ العلمِ فلا حَرَجَ عليه في احتكارِها والسكوتِ عن بيانها[1].

حكى الشيخ ابنُ عرفة[2] في درس تفسيره، أنه دخل على شيخِه ابن الحَبّاب[3] وجعل ينظُرُ في كتبه، فمنعه من استيفاء النظر فيها، وقال له: للشيخ أن يمتازَ عن طلبتِه بزياداتٍ لا يُخْبِرُهم بها!

وعمَدَ بعضُ الناس لعهد الصِّدِّيق رضي الله عنه إلى قوله تعالى: ﴿عليكم أَنْفُسكم لا يضرُّكم مَنْ ضلَّ إذا

---

(١) هذا ضابط مهم في معرفة ما يجوز كتمانه من العلم وما لايجوز.

(٢) «التونسي المالكي، عالم المغرب»؛ كما قال السخاوي في «الضوءاللامع» (٩/ ٢٤٠)، وقال ابن الجزري في «غاية النهاية» (٢/ ٢٤٣): «فقيه تونس، وإمامها وعالمها، وخطيبها في زماننا»، توفي سنة (٨٠٣ هـ).

(٣) اسمه محمد بن يحيى بن عمر؛ قرأ عليه النحو، والمنطق، والجدل، والحساب. انظر «فهرست الرصّاع» (ص ٧٨) وحاشيته.

وكانت وفاته سنة (٧٤١ هـ) كما في « نيل الابتهاج » (٢٣٩) للتُّنْبُكْتي.

والقصة المذكورة هنا مذكورة في «النيل».

اهتديتم﴾[1]، فتأوَّله على غير صواب!! فقام الصِّدِّيق خطيباً، وقال: إنَّكم تقرأُون هذه الآيةَ: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفُسكم﴾، وتضعونها في غير موضعها!! وإنني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ النَّاس إذا رأَوُا المنكرَ ولم يُنكِرُوه يوشِكُ أنْ يَعُمَّهُم اللهُ بعقابٍ»[2].

ولم ينقطع أَثَرُ ذلك التأويل الخاطئ، فظلَّ في أوهام بعض العامَّة إلى هذا العهد، حتى إذا أَمَرْتَ أَحَدَ هؤلاء بمعروف، أو نهيْتَه عن منكرٍ ألقى عليك الآيةَ، كالمستشهد بها على أنك تخطَّيْتَ حَدَّك!! ورميتَ بكلامِك في فُضُولٍ!!.

ومنهم مَن يتلوها على قصد الاعتذار، وتَبْرِئَة جانبه من اللائمة، متى شهدَ مُنكَراً ولم يُغيِّرْهُ بيده أو لسانه أو قلبه، الذي مِنْ أَماراتِ تغييره البُعْدُ عن مكان الواقعةِ المنكَرَةِ.

---

(١) سورة المائدة: ١٠٥.

(٢) رواه أحمد (رقم: ١)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، والحميدي (٣)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٧٤)، والبزَّار (٦٨) بسند صحيح.

وانظر -لتمام الفائدة- حول توجيه الحديث من ناحية المعنى «مشكل الآثار» (٣/ ٢١٣- ٢١٦) للطحاوي، و«نواسخ القرآن» (ص ٣١٨) لابن الجوزي.

ومعنى الآيةِ الذي تُطابِقُ به غيرَها من الآياتِ الآمرة بالدعوةِ: أنكم إذا استقمتم كما أُمِرتم، وقضيتُمُ الواجباتِ التي مِنْ جُملتها الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر؛ فلا يضرُّكم مَنِ اشتدَّ به هواه، وتطوَّح به في وادٍ من الغوايةِ[1].

ولا تُقَدَّر الدعوةُ الواجبةُ بعددٍ، أو تُضْبَطُ بقَدْرٍ منَ الزَّمن؛ إذا قضاه الداعي برِئَ مِن عُهْدَته[2]، وإنما يُرجَعُ في إبلاغها واستئنافها مرَّةً بعد أخرى إلى اجتهاد الداعي، ورجائِه تأثيرَهَا، وأخْذِها في نفوس المدعُوِّين مَأخَذ القَبُولِ.

وإذا دعا[3] طائفةً إلى إصلاح شأنٍ من شؤونِهِم، فعتَوْا عن أمره، واستكبروا عن إجابته، حتى أَيسَ مِن إقبالهم على نصيحته، واستيقن عدَم الفائدةِ من تذكيرهم، خَلَصتْ ذمَّتهُ، ولا جُناحَ عليه أن يقفَ عند هذه الغايةِ.

---

(١) انظر «المُحَرَّر الوجيز»(٥/ ٢١٤) لابن عطية، و«روح المعاني»(٧/ ٤٥) للآلوسي.

(٢) والدليل عليه طول مكث نبي الله نوح -عليه الصلاة والسلام- في قومه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً﴾[العنكبوت: ١٤].

(٣) أي: الدَّاعي.

وحَمَلَ بعضُ المفسِّرين[١] مفهومَ الشَّرْط في قوله تعالى: ﴿فذكِّرْ إنْ نَفَعَتِ الذِّكرى﴾[٢] على مثلِ هذا الحالِ.

وبيانُ هذا التأويلِ: أنَّكَ إذا قُمْتَ بذكرَى قومٍ على الوجه الأكملِ، ولم ينتفعوا بالذكرى وتمادَوا على غوايتهم، فقد قَضَيْتَ حقَّ الدعوة، ولا عليك في أن تَصْرِفَ عنهم نظرَك، وتدَعَهم إلى أيَّامِ الله.

ولا يقطعُ الداعي بعدمِ نفعِ الذكرى، وضياعِها كَصَيحةٍ في فلاةٍ! إلا إذا وجَّه بخطابها إلى قومٍ معيَّنين مرَّةً بعد أخرى، حتى عَجَمَ عيدانَهم[٣]، وكان على ثقة مما انطوتْ عليه نفوسُهم من التقليد في الباطل، وإنكار الحقيقة في أيِّ صورةٍ ظهرَت.

أمّا مَنْ دأبُهُ النصيحةُ العامَّةُ - كخُطَباء المنابرِ وأربابِ الصحفِ[٤]-؛ فلا يحقُّ لهم أن يهجُروا الإرشادَ؛ وإن

---

(١) قال الإمامُ أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»(٨/ ٤٥٩): «والظاهر أن الأمر بالتذكير مشروط بنفع الذكرى». .وتتمّة كلامه فيه فوائد أخرى؛ فراجعه.

(٢) سورة الأعلى: ٩.

(٣) أي: اختبرهم فَظَهَرَتْ له دواخلهم.

(٤) وَجُلُّ أرباب الصحف -اليوم- من دعاة الفساد، وحملة رايتِه !

شهدوا قلَّةَ تأثيره في قومٍ بأعيانهمْ، فما يُدريك أن تُصادفَ نفوساً مستعدّةً للخيرِ، فتقودَها إلى سواء السبيل؟! قال تعالى: ﴿وذكِّرْ فإنَّ الذكرى تنفعُ المؤمنين﴾[1].

وما سَطَعَ الإيمانُ في نفسٍ، إلا كانت كالبلد الطيِّب يَخْرُجُ نباتُهُ بإذن ربِّه، فابْذُرْ فيها من الحكمة والموعظة ما شئتَ أن تبذُرَ، فلا تُرِيَكَ إلا نيَّاتٍ صالحةً وأعمالاً راضيةً.

وكثيراً ما يستخفُّ الناسُ بالأمر تُلقى له الخطبةُ أو تُؤَلَّفُ فيه المقالةُ، فإذا تتابع الترغيبُ فيه، أو التحذيرُ منه -ولو من المُرشِدِ الواحد- أخذوا يُعْنَوْنَ بشأنه، ويتداعَوْنَ إلى العمل به أو الإقلاع عنه[2].

□□□□□

---

(١) سورة الذاريات: ٥٥.

(٢) قال العلاّمة محمد أبو الخير عابدين في كتابه «التقرير في التكرير» (ص٧٩): «اعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيداً له، وتشييداً من أمره؛ وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كرَّرتَ فيه كلامك؛ إما مبالغة في مدحه أو في ذمه، أو في غير ذلك».

الفصلُ الثالث:

المبادرةُ إلى الدعوة

الدعوةُ نوعان:

دعوةٌ يُقصَد بها إنقاذُ الناس من ضلالة أو شرٍّ واقع.

ودعوةٌ يُقصَد بها تحذيرُهم من أمرٍ يُخشى عليهم الوقوعُ في بأسه:

أمّا الأُولى؛ فيتحتّم القيامُ بها لأول وقتٍ مُمكن، ويُلَوِّح إلى هذا الواجبَ قولُه تعالى: ﴿وجاء مِنْ أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال يا قوم اتَّبِعوا المرسلين﴾[1] فقولُه: ﴿مِن أقصى المدينة﴾؛ إظهارٌ لعناية هذا الداعي وشدّة رغبتِه في الإصلاح، حيث لم يُثَبِّطه بُعْدُ المسافة عن السعي إليه والوفاء بحقه؛ وقوله: ﴿يسعى﴾؛ تذكرةٌ لدعاة الإصلاح وإيقاظٌ لِهِمَمِهِمْ؛ كي ينفقوا في هذه الغاية وُسْعَهم، ويسارعوا إلى النصيحة جُهْدَهُم، لأنَّ السعيَ في لسان العرب[2] بمعنى العَدْوِ والمشي بسرعة.

---

(١) سورة يس: ٢٠.

(٢) انظر «لسان العرب»(٢/ ١٥١-ترتيبه)، و« القاموس المحيط» (١٠/ ١٧٧)، و«تاج العروس»(ص١٦٧٠)

وأما النوعُ الثاني من الدعوة؛ فإنْ كان مما ينشأ عن تأخيره حَرَجٌ الْتَحَقَ بالأمرِ الواقع، ووجبتِ المبادرةُ إلى الدعوة حَسَبَ الطاقة، وإن كان بينك وبين وقوعه فُسحةٌ؛ جاز إرجاؤها إلى زمن الحاجة.

وما يقولُه بعض أهل العلم، من جواز السكوت عن العلم إلى أن يُسأل عنه؛ إنما يُحْمَلُ[1] على هذا النوع، الذي لم يَدْعُ الحالُ إلى معرفته في الوقت الحاضر.

حكى القاضي عِياضٌ في كتاب «المدارك»[2]: أنَّ سُحْنون وصاحِبَيْه -عونَ بنَ يوسفَ وابنَ رشيد- دخلوا على أَسَد بْنِ الفُرات، فسألَهم عن مسألة؟ فابْتَدَرَ لجوابه صاحبا سُحنون، وسكت سُحنون، فلمّا خرجوا قالَ له صاحباه: لِمَ لَمْ تتكلّمْ؟ فقال سُحنون: ظهر لي أنَّ

---

(١) من أجل هذا كانت القاعدة عند أهل العلم: «تأخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز».

وفرّقوا بين هذه القاعدة، وقاعدةً أخرى هي: «تأخير البيان عن وقت الخطاب»، فجوّزوا ذلك.

انظر «إرشاد الفحول» (ص ١٥٣) للشوكاني، و« اللمع»(ص١٥٩) للشيرازي.

وراجع كتابي «كشف المتواري » (ص ٧٤ - ٧٥) للوقوف على مزيد بيان في هذه المسألة.

(٢) (١/ ٦١٤) بأطول مما هنا.

جوابكم خطأ، وبيّن لهما ذلك، فقالا: لِمَ لَمْ تتكلّمْ بهذا عنده؟ فقال: خشيتُ أن ندخُلَ عليه ونحن أصدقاءُ، ونخرجَ ونحن أعداءٌ.

قال القاضي عِياضٌ: وسكت سُحنون حين علم أنَّ القضيةَ لا يفوتُ أمرُها، ولو علمَ ذلك لبادرَ بما ظهر له.

□□□□□

التعاضُد على الدعوة

ذكر بعضُ أهل العلم: أنّ قيامَ الواحد بفريضة الدعوة كافٍ، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿فلولا نَفَرَ من كلّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقَّهوا في الدين ولينذروا قومَهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يَحْذَرُون﴾[1]، وقالوا في وجه الاستشهادِ: إنّ الطائفة في لسان العرب[2]: الواحدُ فما فوقه.

وهذا القولُ مستقيمٌ بالنظر إلى إبلاغ الأمر والنهي، وَوَضْعِ الحق بين أيدي الغافلين عنه، أما مِن حيثُ فعلُ الدعوةِ في النفوسِ ودخولُها مدخلَ الإقناعِ؛ فمنَ البيِّن بنفسه أنَّ للدعوة التي تقوم بها الجماعةُ أثراً لا تبلغُهُ دعوةُ الفرد.

وربما كان النظرُ في هذا يرجعُ إلى حالِ المدعُوِّين، أو

---

(١) سورة التوبة: ١٢٢.

(٢) «لسان العرب» (٢/ ٦٢٧)، و«الصّحاح» (٤/ ١٣٩٧)، و«العين» (٧/ ٤٥٨).

حالِ ما تتعلّق به الدعوةُ، أو ما يُقصَدُ مِنَ الدعوة:

أمَّا النظرُ إلى حال المدعُوِّين؛ فقد يُغني العددُ القليلُ في دعوة جماعة تتقارب مشاربُهم، وتتشابهُ أحوالُهم النفسيةُ، أما إذا اختلفت مشاربُهم وتعدّدت نَزَعاتُهم؛ فلكَثرة القائمين بالدعوة -وتظاهُرهم عليها- وقعٌ في نفوسهم، وأَخْذٌ لها من بين تلك النَّزَعات المُتباينة والمسالك المُتشعِّبة؛ فإن الدُّعاة إذا تعدَّدوا اختلفَتْ أساليبُهم في الدعوة غالباً.

وقد يبدو للداعي من وجوه تحسين الأمر أو التنفير منه ما لا يخطُرُ على بال آخرَ، وإن كان أَغْزَرَ علماً وأوسعَ نظراً، وقد تخضعُ النفسُ لأسلوبٍ دون أسلوب، وتهتدي بطَرْزٍ من الجدل أو الموعظة أكثرَ مما تهتدي بغيره، ولو كان أقربَ دلالةً بحكم المنطق وأوضحَ إنتاجاً.

وأمّا حالُ ما تتعلّق به الدعوة؛ فإن الإرشاد إلى أحكام الدين العَمَليَّة -مثلاً- أيسرُ من إصلاح العقائد[1]، ووضعِ الإيمان موضعَ الجحود بالله.

---

(١) أي: للكفار الأصليِّين.

وموضع الصعوبة: إباء الكافرين قبول الإسلام، ورضاهم بما هم عليه من الكفر.

فداعي المطمئنِّين بالإيمان إلى مثل الأحكام العملية؛ إنما يتلو قرآناً أو حديثاً، أو نصوصَ مَن يُقتدى باجتهادهم.

والداعي إلى الإيمان يقصِدُ إلى نقل النفوس من ملَّة إلى ملَّة، وتحويل النفوس من عقيدةٍ إلى أُخرى، يبلغُ من الصعوبةِ أن يحتاجَ دعاتُه إلى من يشُدُّ أَزْرَهم في إبلاغ الحُجّة، أو مطاردة الشبهة.

وكذلك سأل موسى عليه السلام ربَّه أن يجعلَ أخاه هارون شريكاً له في الرسالة، فقال: ﴿واجْعَلْ لي وزيراً من أهلي. هارونَ أخي. اشْدُدْ به أزري. وأَشْرِكه في أمري﴾[1].

وبَعث عيسى عليه السلام إلى أهل انطاكيةَ برجلين اثنين ليدعُواهم إلى الإيمان، فقابلوهما بعنادٍ وتكذيبٍ، فأضاف إليهما ثالثاً يُؤيِّد بَعْثَهُما؛[2] فقال تعالى:

(١) سورة طه: ٣١.

(٢) قال ابن كثير في «التفسير»(٣/ ٥٧٠): «نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره»!

ثم نقض ذلك ورده من وجوهٍ، فليراجع.

وانظر «المُحَرّر الوجيز» (١٣ / ١٩٣) لابن عطيّة.

﴿واضربْ لَهُمْ مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المُرْسَلون. إذ أَرسلْنا إليهمُ اثنينِ فكذَّبوهما فعزَّزْنا بثالثٍ فقالوا إنا إليكمْ مُرسَلونَ﴾[1].

وأمّا حالُ ما يُقْصَدُ من الدعوة؛ فإنك ترى رجالاً انحرفتْ عن أدب الإسلام قلوبُهم، وساعَدَتْهُمُ الأيَّامُ على أن أصبحوا يُسيطرون على بعض شعوبهم[2]، ويُفسدون عليهم دنياهم وآخرتَهُمْ؛ فيعْتَدُون على أحكام دينهم، ويُناصرون الأشخاصَ الذين يملأون أفواهَهم بالجهل على رسولِهِ الأكرمِ.

فإذا كان أولئك المُنحرِفون عن أدب الإسلام ممّن لا يُقبِلون على الحق بعينٍ باصرةٍ، أو لا ينقادونَ إلى الحقائق المبصِرةِ، فمنَ المحتمَلِ أنْ لا يُرادَ منْ دعوتهم إصلاحُ نفوسهم، وإنما يُرادُ منها صرفُهُم عن هذه السيرة الخَرْقاء، وإراءَتُهم أنَّ الأُمّةَ الّتي تتقلَّد الإسلامَ شريعةً؛ لا تستطيع أن تبقى أمامَ تعسُّفهم هذا معقودةَ الألسِنَةِ، أو مقبوضةَ الأيْدِي.

---

(١) يس: ١٤.

(٢) حُكّاماً، وقادة !!

فالذين يرضُوْن عن عَبَث هذه الأرواح غير الطيِّبة؛ إنما يُغني في دَعْوَتهم جماعةٌ من زعماء الأُمّة لا يحومُ على ألسنَتهم مَلَقٌ، ولا يشترون متاعَ هذه الحياة بكتمان ما أُوتوا من حكمةٍ، فيُوقظونَهم من غُرورهم، ويُرونهم أنَّ العِزَّةَ للمؤمنين.

أمّا صوتُ الواحد ونحوِه؛ فإنَّما يَلْقَى منهم آذانَ الصُّمِّ الذين لا يفقهون!!

وإنما تفيد كثرةُ الدُّعاة عند اتِّحادهم[1] وقصْدهم إلى إقامة المصالحِ ونُصرة الحقيقة في نفسها، وبذلكَ أوصى النبي ﷺ أبا موسى ومُعاذَ بن جبل حينَ بعثهما إلى اليمن، قال لهما: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولاَ تنفِّرا، وتطاوعا»[2].

ويُشعر بهذا الشرط التعبيرُ عن الدُّعاة باسم «الأمة» دون «القوم» في قوله تعالى: ﴿ولْتَكُن منكم أُمَّةٌ يدعون إلى الخير﴾[3] قال القفّال[4]: الأُمّة: القومُ المجتمعون على

---

(١) اتباعاً لقول الله جل وعلا: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[آل عمران: ١٠٣].

(٢) رواه البخاري (٢٨٧٣)، مسلم (١٧٣٣) عن أبي موسى الأشعري.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٤) هو أبو بكر محمد بن علي الشاشي، القفّال الكبير، المتوفى سنة (٣٦٥هـ)، ترجمته في «طبقات السُّبكي» (٣/ ٢٠٠-٢٢٢) وقد سئل أبو سهل الصعلوكي عن «تفسيره»؟ فقال «قدَّسه من وجه ودنَّسه من وجه». أي: دنسه من جهة نصره للاعتزال.

كذا في «السِّير» (١٦/ ٢٨٥)

الشيء الواحد، يقتدي بعضُهم ببعض، مأخوذةٌ من الائتمام.

وهو الوجهُ في إيثار التعبير به أيضاً في آية: ﴿ومن قومِ موسى أُمةٌ يَهْدُون بالحقِّ وبه يَعْدلون﴾[1]؛ فإنَّ لفظَ «القَوْم» يُطْلَق في اللسان على عدد أقلَّ ممّا يُطّلَق عليه لفظُ «الأمة»؛ وهو من هاته الجهَة أنسبُ بدُعاة الإصلاح لقلَّة عَدَدهم، ولفظُ «القوم» أَلْيَقُ بسائر الأفراد لكثْرتهم؛ ولكنه اختير للدعاة اسمُ «الأمة»؛ لأَنَّ إشعارهُ بمعنى اتِّحادِهم وتآلُفِهم أقوى مما يُشْعِر به لفظ «القوم».

فالقرآن يُرشد إلى أن يكون دعاةُ الإصلاح جماعةً، وأن يكون أدبُ هذه الجماعة الاتحادَ والتعاضدَ[2].

ومن الواجب صرفُ الهمّة إلى مشروع الدعوة، وحتى تقام على نظَام يحفظُ الحقائق والمصالح.

أمّا بقاؤها مطروحةً إلى داعية الأفراد[3]؛ فقد يُفْضي بها إلى ضياعٍ، وطالما جَعَلَها تُفْقَدُ حَيث يجَبُ أَن تكون.

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٩.

(٢) ينظر في بيان الضوابط الشرعية للعمل الجماعي: كتابي «الدعوة إلى الله: بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي».

(٣) كل يسير بها على رأيه، وينطلق بها من تصوُّره، ويطير بها إلى فكره!! دون استرشاد بتوجيهاتِ العلماء الربانيِّين، وتوصياتهم وأفكارهم.

الفصلُ الخامسُ:

مَنِ الذي يقومُ بالدعوة ؟؟

أطلق الإسلامُ في أمر الدعوة؛ فأعطى لكلِّ إنسان الحقَّ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أَذِنَ لأدنى الناس منزلةً أن يصعَدَ إلى مقام الأمير الأعلى ويجاهِرَه بالنصيحة وطَلَب الإِصلاح[1].

---

(١) قال سماحة أستاذنا الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز في كتابه «المعلوم» (ص ٢٢): «ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الفوضى وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويفضي إلى الخوض الذي يضر ولا ينفع.

ولكن الطريقة المتبعة عند السلف النصيحة فيما بينهم وبين السلطان، والكتابة إليه أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجَّه إلى الخير».

ثم قال حفظه الله تعالى: «ولما وقعت الفتنة في عهد عثمان -رضي الله عنه - قال بعض الناس لأسامة بن زيد -رضي الله عنه- لو أتيت عثمان فكلّمته؟! قال: إنكم ترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم، إني أكلمه في السر فيما بيني وبينه، دون أن أفتح باباً لا أكون أول من فتحه..».

رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩)

قلت: وقوله: « دون أن أفتح باباً » معناه: (أي: كلمته فيما أشرتم إليه، لكن على سبيل المصلحة والأدب في السر، بغير أن يكون في كلامي ما يثير فتنة أو نحوها).

كذا في «فتح الباري » (١٣/ ٥١) للحافظ بن حجر.

وقد كان الفردُ من سائر الناس يأمرُ الولاةَ في عهد السَّلفَ ويَنْهَاهُم[1]:

روى البخاري في «جامعه الصحيح»[2] عن طارق بن شِهَاب، قال: أولُ من بدأ بالخُطبة يوم العيد قبل الصلاة مَروانُ، فقام إليه رجلٌ فقال: الصلاةُ قبل الخطبة، فقال: قد تُرِك ما هنالك، قال أبو سعيد الخدري: أمَّا هذا فقد قضى ما عليه، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «من رأى منكم منكراً فَلْيُغَيِّره بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان».

وجاء في حديثٍ آخَرَ في «الصحيح»[3] أيضاً: أنَّ أبا سعيدٍ هو الذي جذب بيدِ مروانَ -حين رآه يصعدُ المِنْبرَ-، فردَّ عليه مروانُ بمثل ما ردَّ به على ذلك الرجل.

---

(١) المُراد: وَفْقَ الضوابطِ الشرعيّةِ الصحيحةِ.

(٢) ليس هو في «صحيح البخاري»! إنما هو في «صحيح مسلم» (٤٩).

ورواه أحمد (٣/ ٤٩ و٥٤)، والترمذي(٢١٧٢)، والنسائي (٨/ ١١١)، والطيالسي (٢١٩٦)، وابن حبان (٣٠٦).

(٣) هذه الرواية في «صحيح البخاري » (٩٥٦)، لكن ليس فيها نَصُّ الحديث المرفوع.

ولعلّهما قضيتان كما قال شارحو الحديث[1]؛ إحداهما وقعت لأبي سعيد، والأخرى كانت من الرجل بحضرته[2].

ويُضاهي هذا: ما روى مسلمٌ في «صحيحه»[3] عن كَعْب بن عُجْرة: أنه دخل المسجدَ وعبدُالرحمن بنُ أُمِّ الحكم يخطُبُ قاعداً، فقال: انظُروا إلى هذا الخبيث يخطُب قاعداً، وقد قال تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها وتَرَكُوك قائماً﴾[4]!!

(١) «فتح الباري»(٢/ ٤٥٠) للحافظ ابن حجر، و«شرح مسلم» (١/ ٢١٧) للإمام النوويّ.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٢/ ٤٥٠): «وفيه إنكار العلماء على الأمراء إذا صنعوا ما يخالف السنة».

أقول: فهذا الإنكار إنما هو للعلماء حسب، وليس هو لكل إنسان كيف شاء متى شاء !!

(٣) (برقم: ٨٦٤).

(٤) سورة الجمعة: ١١.

وقال النووي في «شرح مسلم»(٢/ ٤٦٣): «هذا الكلام يتضمن إنكار المنكر، والإنكار على ولاة الأمور! إذا خالفوا السنة».

قلت: وهو كسابقه في اختصاص الإنكار بأهل العلم، دون العامة من الناس - أو أشْباهِهِم-.

واعتبِروا بعد هذا في قوله تعالى: ﴿وتَوَاصَوا بالحقِّ وتواصَوا بالصبر﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كانوا لا يتناهَوْنَ عن مُنْكَرٍ فعلوه﴾[2]، فالتعبيرُ بصيغة التفاعُل[3] في قولِه: ﴿تواصَوْا﴾ وقولِه: ﴿لا يتناهون﴾: يدلُّ على تبادلِ الوصاية، والتناوُب في النهي عن المنكر، ويشيرُ إلى أن الشخص الذي يُوصي آخَرَ بحقٍّ أو ينهاه عن منكر؛ لا يعلُو به قَدْرُه عن طاعةِ ذلك الموصَى -أو المنهيِّ- إذا دعاه إلى صالحٍ أو إلى النزوعِ عن باطل.

ويجري على هذا الباب: أنَ الفُقهاءَ يُطلِقون للخصوم أن يخاطبوا القاضي بنحو: «اتقِ الله» أو: «اذكر الله»، ولم يَعُدُّوه من اللمز بقلَّة التقوى[4].

---

(١) سورة العصر: ٣.

(٢) سورة المائدة: ٧٩.

(٣) وهي من أفعال المشاركة.

(٤) والله سبحانه يقول: ﴿يا أيها النبيُّ اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾[الأحزاب: ١].

والنبيُّ صلوات الله وسلامه عليه: سيد المتقين، وأعظم من حارب الكفار المنافقين.

ولو أُجري على مثل هذا الحُكْمِ الجَفاءُ، أو الطعنُ الذي يستحقُّ به الخصمُ الأدبَ؛ لاتَّخذه الحاكمُ المستبدُّ ذريعةً إلى كفِّ الرعية، وسدِّ أفواههم عن إحضارِه النصيحةَ، ودعوتِهم إلى القيام بصالح الأعمال.

يُروى[1] أن رجلاً قال لِعُمَرَ بن الخطّاب في كلامٍ دارَ بينهما: «اتق الله»، فأنكر عليه بعضُ الحاضرين وقال له أتقولُ لأمير المؤمنين: «اتق الله»!؟ فقال عمر: دَعْهُ فَلْيَقُلْها لي، نِعْمَ ما قال؛ لا خير فيكم إذا لم تقولوها لي، ولا خيرَ فينا إذا لم نقبلْها.

إنما يُعْتَمَدُ في شرط المصلح: أن يكون على بيِّنة من حُكم ما يأمر به أو ينهى عنه، تلك المَزِيَّةُ المُوْمَأُ إليها بقوله تعالى: ﴿ادعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿... أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومَنِ اتّبَعَني﴾[3].

---

(١) في «تاريخ ابن عساكر» (ص٣٦٢ - ترجمة عمر) قوله: «لوددتُ أني نجيتُ من الإمارة كفافاً، لا لي ولا علي».

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) سورة يوسف: ١٠٨.

والناسُ في إدراك الحقائق أربعُ طبقات:

١- فمنهم من يَشْعُرُ بوجه الحق، فيستولي عليه نظراً وعلماً، وفي استطاعته أن ينصبَ عليه الدلائلَ الصريحةَ ليهتديَ بها المقتدون على أثره.

ولا تنبعثُ أُمَّةٌ من مرقدها، وتمتطي غاربَ عزِّها، إلا إذا نبتت فيها نابتةٌ من أهل هاته الطبقات.

٢- ومنهم من لم يبلُغْ في قوة الشعور، وسُرعة الخاطر أن ينتبهَ إلى وجهة الحقّ من تِلْقاء نفسه، ولو تُرِكَ بحاله وخُلِّيَ سبيلُه لَتَمادى في جهالته، واستمرّ على غوايته، ولكنه يسمعُ الكلمةَ تشير إلى موضع الحق، فيرمي ببصره إليه، ويأخذُ في نَصْب الدلائل المُوصِلة إلى معرفته.

٣- وبعضُ الناس لا ينتبهُ للحقِّ بنفسه، ولا يتمكّن من إقامة الشواهد عليه لو أَنْبَأْتَهُ بناحيته، فيفتقرُ إلى أن تأخُذَ بيده، وتقودَه بما تُلقيه من الأدلّة حتى يراه رأي العين، إلا أنه انطوى على فطرةٍ سليمة ونظرٍ صحيح، فلا

يُمكنك -بعد أن يفقَهَ الرُّشْدَ، ويستقرَّ على علمٍ- أن تنزِعَهُ منه، وتغرِسَ في مكانه جهلاً أو ضلالاً.

٤- وفي الناس من يُلقي زِمامَهُ إلى أيدي الدعاة، ويتلقّى أقوالَهم بِالطاعة دون أن يُكلِّفهم الدليلَ على صحة قضية، أو الوجهَ في بيان حُسن عمل، وإنما يعتمدُ في الاقتداء بهم على ما اشتهروا به، من نحو العلم والاستقامة، وكثرة المُريدين من أُولي الأحلام الراجحة[1]!

وعلامةُ هذه الطبقة: أن يرجعَ مرشدُهم عما بثَّهُ من علم، أو نَدَبَ له من عملٍ، فينقلبوا معه إلى تقليد مذهبِهِ الجديد[2]!!

---

(١) وهذا عين التقليد الذي يُذم عليه صاحبه.

(٢) وهذا من التذبذب، والتردد، وليس بسببِ كونه ظهر له من الحجج ما جعله يرجع عن رأيه، وكذلك هم !!

ورحم الله عمر بن عبد العزيز القائل: «من كثرت خصوماته لم يزل يتنقَّل من دين إلى دين». رواه ابن بطة في «الإبانة» (٥٧٠).

وفي لفظ عنه - رواه الآجري في «الشريعة» (ص٥٦) - قال: «من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثر التنقُّل».

ورواه الدارمي في «سننه» (١/ ٩١)، ثم قال شارحاً: «كثر تنقُّله؛ أي: ينتقل من رأي إلى رأي».

ولا يختصُّ بواجب الدعوة[1] أهلُ الطبقة العالية وما يَقْرُبُ منها؛ فإنّ من الحق ما يكون واضحاً بنفسه أو بدليلٍ مُتوافرٍ، بحيث لا يتأتّى فيه نزاعٌ، ولا يحتاج الأمرُ فيه إلى تقريرِ حُجة، أو إزالة شبهة: كفريضةِ الصلاة، وفضيلة العدل، والعَمَل لتخليص الوَطَن من سيطرة الأجنبيّ؛ فأمثالُ هذه الحقوق إنما يُهمِلُها مستطيعُ القيام بها لآفةِ سهوٍ أو داعيةِ هوىً.

فيحقُّ لكل مسلم -وإن كان من أهل الطبقة السُّفلى- أن يُذكِّر بها غيره، ويُوصِيَهُ بها، وإنْ كان من أهل الطبقة العليا.

وأما ما لا تُدرِكُه العامّةُ من الحقائق، ويضطرُّ الداعي إلى أن يُورِدَ في بيانه الأدِّلةَ ويطاردَ الشُّبهَ، فأمر الدعوة إليه من حق العُلماء القادِرين على تحرير بحثِه، وحُسن التصرُّف في سَوْقِ أدلّته.

يأخذُ بعض أهل العلم في وصف الداعي أن يكون

(١) أي: في بعض أنواعها الواضحة البينة؛ كما سيشرحه المؤلف بعد.

صالحاً في نفسه، مستقيماً في سيرته؛ وهو شرطٌ صحيحٌ بالنظر إلى انتفاع الناس بإرشاده، وتسابُقهم إلى إجابته؛ فإنهم -على ما نرى ونسمَع- لا تلينُ قلوبُهم لموعظة واعظ، ولا يقتدون برأي مرشد- إلا إذا وثقُوا بأمانته، وأبصروا في حالته الظاهرةِ مثالاً لما ينصحُهم به.

وقد تبرّأ شُعَيبٌ عليه السلام من مخالفة قومه إلى ما حذَّرهم منه فقال: ﴿وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾[1].

وجاء في كثيرٍ من الآيات المَسُوقَة في فَضْلِ الدعوة ذكرُ صلاح الداعي في نفسه، واستقامته في عمله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أحسنُ قولاً ممَّن دَعا إلى الله وعَملَ صالحاً﴾[2]، وقال تعالى: ﴿هل يَسْتَوي هو ومن يأمُرُ بالعدلِ وهو على صراطٍ مستقيم﴾[3].

وجاء في التنزيلِ ما فيه تقريعٌ وتعجب من حال الذي يُلقي الموعظة، ويبسُطُ لسانَه بالأمر بالمعروف، وهو يتركُ العملَ به ناحيةً؛ قال الله تعالى: ﴿أتأمُرونَ الناسَ بالبرِّ وتنسَوْن أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[4].

(١) سورة هود: ٨٨.
(٢) سورة فصلت: ٣٣.
(٣) سورة النحل: ٧٦.
(٢) سورة البقرة: ٤٤.

وفي هذه الآيةِ شاهدٌ على أنَّ مَن أرشَدَ غيرَه الى صالحٍ وهو قابضٌ يدَه عنه، أو حذَّره مفسدةً وهو لا يغادرُ موضعَها؛ فقد خالفَ مُقتضى الحكمةِ، ودخل في قَبيل الذين لا يَعْقِلون !

يتوهَّم بعضُ الناس أنّ الدعوَة إلى احترامِ حقائق الإسلامِ وآدابِه إنما هي شأنٌ مِن شؤون عُلماء الدين! وربّما ذهبَ بهم الوَهَمُ في مصرَ أو في تونُسَ - مثلاً - إلى أنها شأنُ علماء الأزهر أو جامع الزيتونة[1]، وانْبَنَى على هذا أنَّ بعضَ من يُدَرّسُ حقائقَ الإسلام وآدابَه ويستطيعُ بيانَ حكمتِها ودَفْعَ شُبهِ المُضلِّين عنها؛ لا يَهُزُّ في هذا الغَرَضِ قلماً ولا يُحَرِّكُ به لساناً! ثم لا ترى له مِن عُذْر عن هذا التقصيرِ سوى أنّه لم يَكُنْ من أصحابِ العمائم ! أو أنه لم يكُن من علماء المعاهِد الدينيّة !! إنْ لم يُلْقِ إليك هذا العُذْرَ بمقالِه؛ دلَّكَ عليه بلسانِ حاله.

وقد عَرَفَ فَريقٌ من حُكماء الشرق أنّ الداعيَ إلى

---

(١) ولقد تولّى المؤلف رحمه الله التدريس في(الزيتونة)، والمشيخة في الأزهر.

مبادىء الإسلامِ خادمٌ للإنسانيّةِ، عاملٌ على إنقاذ الشرقِ من مخالب الاستعمار، فوقفوا حيَاتَهم -أو جانباً منها- على نَشْر محاسنهِ، وإفحامِ هذه الفئةِ المُتهَالِكة على مُحاربتهِ.

□□□□□



الفصل السادس :

الإخلاصُ في الدعوة

الغايةُ من الدعوة صلاحُ العالَم، وانتظامُ شؤونه على منهج السعادة؛ فإذا وجَّه الداعي قصدَه إلى هذا الغَرَض؛ وأقامه نُصْبَ عينه؛ استقام على الطريقةِ، وقضى حياتَه في سيرة راضيَةٍ، وإذا انحرف عن هذا القصد - ولو قِيدَ أُنْمُلة -؛ رأيتَه يضطربُ في حال دعوته، كالريشة تخفقُ بها الرياحُ أينما تصرَّفت.

وقد حكى التنزيلُ في مواعظِه أنَّ شُعيباً - عليه السلام - قد برَّأ نفسَه وَدَفَعَها عن أن تؤُمَّ غَرَضاً من الدعوة سوى الإصلاح، حين قال: ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعتُ وما توفيقي إلا بالله﴾[1].

ويُرشِدُنا قولُهُ تعالى: ﴿لا أسألكُمُ عليه مَالاً إنْ أَجْرِيَ إلا على الله﴾[2] إلى أنَّ تشوُّفَ الداعي إلى ما في

(١) سورة هود:٨٨.

(٢) سورة هود:٢٩.

أيدي القوم، وتطلُّعَهُ إلى أن ينالَ من وراء إرشاده شيئاً من مَتَاع هذه الحياة: قادحٌ في صدقِه، وداَخلٌ بَالريبةِ فَي إخلاصهِ.

ولا يدخل في زُمرة المصلحين مَنْ يَظْهر بدعوى الغضب للعدالة، ويُعلنُ البغضاءَ لمن يروم انتهاكَ حُرمتها، ثم يُبصرُ مرةً أخرى قوَماً يعمدُون إلى حقوق قائمة فَيَفْتلونَ أعناقهَا، فإذا هو يتبسَّمُ لصنيعهم تبسُّمَ المرتاحَ، أو يشاركُهم في دفنها ولو بِحَثْيةٍ من تراب.

ماذا حمله على حُبِّ العمل بالحق والانتصار له أولاً؟ ثم ماذا بعثَه على خِذلانه والارتياح لإزهاقِ رُوحهِ ثانياً؟

إقامةُ الحقِّ في الأُولى تعودُ عليه بمنفعة، فكان من أشياعه! وإطفاءُ نوره في المرة الأخرى لا يذهب بحظٍّ مِنْ لذائذهِ، فلم يأسف للقضاء عليه!

ومنَ الناس مَنْ يُضْمرُ في نفسه لُبَانةً لا تنالُها يدُه إلا بمساعدة َقومه، فينصبُ اسَمَ الإصلاحَ[1] شَرَكاً لاستعطافهم والتفافهِم حوله، فإذا ضحك الإقبالُ في وجهه، وحان قطافُ أُمنيَّته: انصرف عن معاضدة العدل، وعرَّى أفراسَ الَدعوةِ ورواَحلَها[2].

---

(١) وهكذا يفعلُ كثيرٌ مِن أصحاب الأغراضِ، وذوي النفوس المريضةِ.

(٢) ولقد رأيتُ بأمِّ عيني مِن هؤلاء صُنوفاً وألواناً !!

تهافتَ كثيرٌ من أصحاب الضمائر المعتلّة على منصب الدعوة، واجتهدوا في كتم سرائرهم بغاية ما يستطيعون، وما لبثوا أَنِ انكشف سرُّهم، وافْتُضِحُ أمرُهُم؛ سُنّةَ الله في الذين يَظْهرون بغير ما يعلمون من أنفسهم!

وهذا ما يجعلُ أذكياء الناس يحترسون ممّن يخرج في زِيٍّ مصلحٍ، أشدَّ ممّا يحذَرون المُجاهِرَ بإرادة العَنَتَ والفساد، فأخو العشيرة إذا ظهر لهم في ثوب الناصح الأمين؛ انخدع لأقواله أهلُ الغباوة!! والتَبَسَ حالُه على كثير من أهل النباهة! فيجد سُبُلاً مفتوحة ونفوساً متهيِّئةً لقَبُولِ ما يَدُسُّه في مطويٍّ كلامه، ويُكِنُّهُ تحت اسم الإصلاح مِن مقاصدَ سيِّئةٍ، فيكون كيدُهُ أقربَ إصابةً، وأنفذَ رميةً مِنْ خطر المبارِز لهم بالعداوة، والعملِ على شقائهم؛ فإنَّ مَنْ يكشفُ لهم عن بَطَانة صدره: لا يرميهم بالمكايد تحت ستارٍ، ولو رماهم بها في مُواربةٍ لوجدوا من شعورهم بطَوِيَّته ما يحملُهم على سوء الظنّ به، ويُنقِذُهم من الوقوع في حبائله.

ونحن نرى الذين يَصُدُّون عن الإسلام مِن المخالفين

له عَـلانيَـةً: لم ينالوا بين الأمم الإسـلامـيـة إلا خـيـبـةً وخسـاراً، ورأينا الفئة التي ما برِحَتْ تُذكَرُ في حساب المسلمين - وهي تحملُ لهم عـداوةَ الذين أشـركـوا - قـد فعلت في فـريقٍ من شبابنا؛ ما تَقَرُّ له عينُ الأجنبي الذي يحاوِلُ أن تكون سلطتُه خالدةً.

والتمييزُ بين مَن وقف يُنادي للإصلاح صادقاً، ومَنْ لبِسَ قميصَ المُصلِح عاريّةً - لِدُنيا يصيبها، أو وَجَاهة يتباهى بها - إنما تَهْتدي إليه الفراسةُ المُهَذّبةُ والاختبارُ الصحيحُ:

فإذا أبصـرنا داعياً ذا يسارٍ ولم يظهـر في طبيعته حرصٌ على نماء ما بين يديهِ من المال، أو قام يدعو فريقاً ليس من دَأْبِهم بسطُ أكُفِّهم بِصِلَةِ الدعاة؛ فما كان لنا أن نرميَهُ بتهمةِ القصدِ إلى اصطياد ما في خزائن الناس، من زينةِ هذه الحياةِ.

ويدلُّكَ على سـلامـةِ نيّـتـهِ من إحـراز رياسـةٍ أو وجاهة: أن ينشأَ في بيتٍ ماجد، ويحوزَ في الشرف مكانةً ساميةً، فيقومَ وهو يشعرُ بأَنَّ مجاراتَهُ للقوم، وإغضاءه

عما يشاهدُهم عليه من العوَج يزيدُ في إقبالِهم عليه، ويَضَعُ في قلوبهم الرضا عن سيرته، فيضربُ عن مُداجاتهم[١]، ويناضلُهم بالحُجَّة، ولا ينفكُّ يعرِضُ شمسَ الحقيقةِ على أبصارهم، وهم لها كارهون.

ومنْ شواهد طِيب السريرة: أن يُناديَ قومَهُ للإصلاح سنين، ويتمادى في سعيه المتواصل إلى آخر رَمَقٍ من حياته؛ دون أن يَفُلَّ عزمَهُ تباطُؤُهُم عن إجابته، أو مقابلتُهم لصنيعه بالكُفْران.

والشأنُ في مَن انطوى صدرُهُ على سريرة غير طيّبة: أن يبتغيَ إليها الوسيلةَ، فإذا أبْطَأتْ به ولم تَقَعْ عينُه إلا على خيبةٍ وإخفاقٍ؛ ملَّ العملَ وصرفَ جُهْدَهُ إلى وسيلةٍ أخرى!!

والذي يُواصلُ سَعْيَهُ ويُنفقُ معظمَ حياته في الدعوة: قد نَصِفُهُ بسلامة النّية وإرادة الخيرِ لقومه، ولكنَّا لا ننعَتُهُ باسم «المُصلح»؛ إلا إذا صفَا منهجُه واستقامتْ آراؤه؛ فمنَ الدُّعاة من تطيبُ سريرتُهُ ويَخلُصُ قصدُهُ، وإنما يَخُونُهُ قلَّةُ بضاعته في العلم، أو قصورُ نظره عندَ قياسِ الأشياءِ بأشباهها، أو اقتباسِ الفروعِ منْ أُصولها[٢].

---

(١) أي: مداراتهم: «قاموس» (ص ١٦٥٤).

(٢) وهذا تقعيد مهم، يجب وعيه وفهمه، حتى لا تختلط قواعد (الإصلاح)، بمتاهات الفساد والإفساد التي يمارسها بعض المتحمسين؛ وهي تلبس لَبوس الخير، وتتزيّى بظاهر الصلاح !!



الفصل السابع

طُرُقُ الدعوةِ

تؤدَّى الدعـوةُ باللسـانِ تـارةً، وبالقلـمِ تارةً أخـرى، ولكلٍّ منهما مقامٌ هو أحقُّ به من الآخر:

ففي الناس مَنْ يُساعدُهُ لسانهُ فيعبِّرُ كيف يشاء، ويُمسكُ القلَمَ فلا يجدُه مِطْواعاً.

وفي النـاس مَنْ إذا نطق وقع في كَبـوْة، وإذا كـتب أبدع، وبلغ ببيانِ ما يجولُ في ضميرهِ الأمدَ الأقصى.

فينبغي للداعي أن يُبْصِرَ في نفسه، ويعرفَ من أيِّ صنفٍ هو؟ ثم يأخذَ الناس بالطريقِ التي يركَبُها ذَلُولاً.

فإنْ كان الداعي طَلْقَ اللِّسانِ بليغَ القلمِ؛ راعى في إرشاده حالَ المدعُوِّين؛ فإنّ الناس طبقاتٌ، وإذا استوى في نَظَرِ الطبقة المستنيرة الخطيبُ البارعُ والكاتبُ الفائقُ؛ فإنَّ الخُطَبَ أسرعُ إلى فهم العامَّة، وأنهضُ بهم إلى ما تأمرُ أو تنهى.

وَلشـدَّة ما تؤثِّرُ الخُطَبُ في نفوسهم؛ ترى الرئيسَ المستبِدَّ يَحْنَقُ على الخُطَباء أكثرَ مما يَحْنَقُ على الكُتَّاب.

والدعـوةُ بالكتـابةِ أوسعُ جـولـةً وأخلدُ أثـراً؛ ومِنْ فـوائدها: إرشـادُ مَنْ لا يُمكنُك أن تُخاطبَه: فُـوكَ[1] إلى أذنه، وإرشادُ المنحرفين عن السبيل، معَ البُعد مِنْ ساحتِهم، والسلامةِ من أن يُواجِهَك سفهاؤهم بالسُّخريةِ والأَذى.

عُني الإسلامُ بالخطابة، فشرع الخُطَبَ أيام الجمع والأعياد؛ ليقومَ فيها الخطيبُ بإرشادٍ يراعي فيه حالَ الأُمة، فيقرعَ أسماعَها بالموعظةِ الحسنة، ويستنهضَها للأعمالِ الكافلةِ بعزِّها في الدنيا وسعادتها في الآخرة.

ذَهَلَ كثيرٌ من الخُطَباءِ عن هذه الحكمة، فالتزموا لكلِّ شهرٍ خُطَباً مُعَيَّنَة يسردُونها سرْداً، ولا ينظُرون فيها إلى ما يقتضيهِ حالُ الناس في التعلُّم أو التذكيرِ!!

وبصنيعِهم هذا؛ خرجوا بالخُطَب عن أن تكونَ طريقَ الدعوةِ إلى إصلاح.

ويزيدُ في حُسن الخُطَبة ونَفعِها: أن تكونَ من إنشاء الداعي، ويكونُ نفعُها أبلغَ إذا استطاع أن يرتجلَها ارتجالاً؛

---

(١) أي: مشافهة من كلامك إلى سمعه.

فإنّ الأقوال التي يَنْزِعُ معناها بنفسه، ويَسْبِكُ عباراتها بطَبْعه؛ تكونُ أبلغَ أثراً في نفوس السامعين، وأَمْلكَ لعواطفهم من أقوالٍ صُنِعَتْ من قبلُ، فأخذ يحكي ألفاظَها حرفاً فحرفاً !! والأقوالُ المُنْشَأَةُ حالَ إلقائها تصدرُ عن انفعالِ نفسٍ، وقوةِ إرادةٍ، فتنفُذُ في نفس السامعِ بألفاظٍ جديدةٍ، وهيأة غيرِ مُصطَنعةٍ.

ويُمكنَك أن تعرفَ مِقدارَ انفعالِ الخطيبِ وقوّةِ إرادته، ممّا تشاهدُه في هيأته الظاهرةِ من تبسُّمٍ أو استعبارٍ، وعُبوسةِ جبينٍ أو طلاقته، ورفعِ صوتٍ أو خفضه، إلى ما يُماثِلُ هذا من الآثارِ التي لا تشاهدُها على ظاهرِ الناقلِ، أو المترجِم لِكَلامِ غيرِه - إلا أن يتكلَّفها!-.

وتختلفُ طرقُ الدعوة - من حيثُ طَرْزُ الكلامِ، ومبلغُ الاستدلال - إلى ما يفيدُ يقيناً لا ريبَ فيه، وإلى ما يفيدُ ظنّاً غالباً؛ قال تعالى: ﴿ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادِلْهُمْ بالتي هي أحسن﴾[1]، وقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى أن المراد من الحكمةِ: الحُجّةُ

---

(١) سورة النحل: ١٢٥.

المفيدةُ لليقين، ومن الموعظةِ الحسنة: الأماراتُ الفنّيةُ والدلائلُ الإقناعيّةُ، ومن المجادلة بالتي هي أحسن: الدليلُ المؤلَّفُ من مقدِّمات مسلَّمة عند المُنازِع.

وفصَّل الإمام الغَزَاليُّ في كتاب «الاقتصاد»[1] هذه الأنواعَ من الحُجج، وقسَّم المخاطَبين إلى ثلاثِ طبقات، وعيَّن لكلِّ طبقة نوعاً؛ قال: «والبرهانُ يخاطَبُ به الأذكياءُ، والخَطابةُ يخاطَب بها العوامُّ؛ لأنهم لا يفهمون البرهان، والجدلُ لا يخاطَب به إلا المعانِدون في الاعتقادِ؛ لأنهم لا يرجعون عن مذهبهم بالموعظة».

ولم يَرتضِ الشيخُ ابنُ تَيْمِيَّةَ تفسيرَ الآيةِ بهذه الطُرُقِ المنطقيّة، وقال في رسالة «مِعراج الوصول»[2]:

«بلِ الحكمةُ هي معرفةُ الحقِّ والعملُ به، فالقلوبُ التي لها فهمٌ وقصدٌ تُدعى بالحكمة، فيُبيَّنُ لها الحقُّ علماً وعملاً، فَتُبَلِّغُهُ وتعملُ به، وآخرون يعترفون بالحّق، لكنْ

(١) واسمه «الاقتصاد في الاعتقاد»، مطبوع مراراً.

(٢) كذا والصواب في اسمها: «معارج الوصول»؛ فانظر (١٩/ ١٦٤- مجموع الفتاوى).

لهم أهواءٌ تصدُّهم عنِ اتباعِه، فهؤلاء يُدْعون بالموعظةِ الحسنةِ، المشتملةِ على الترغيبِ في الحقِّ، والترهيب من الباطل.

والدعوةُ بهذينِ الطريقين لِمَنْ قَبِلَ الحقَّ.

ومَنْ لم يقبلْه؛ فإنه يُجادَلُ بالتي هي أحسن».

ثم قال[1]: «والقرآن لا يحتجُّ في مجادلته بمقدمةٍ لمجرَّد تسليمِ الخصمِ لها -كما هي الطريقةُ الجَدَلِيّةُ عند أهل المنطق وغيرهم-، بل بالقضايا والمقدّمات التي تُسَلِّمها الناسُ، وهي برهانيَّةٌ.

وإن كان بعضهم يُسلِّمُها وبعضُهم ينازعُ فيها ذكرَ الدليل على صحتِها.

والواقعُ: أنَّ القرآن لا يحتجُّ إلا بقاطع؛ فإنّ دعوتَه للناس كافَّةً، وهدايتَه للعقول؛ كبيرةً كانت أم صغيرةً، ومن حكمته -وهو يدعو البشرَ قاطبةً- أن يُقيمَ على الحقِّ أدلةً لا تحومُ عليها ريبةٌ، ولا يستطيعُ لها كِبارُ الفلاسفةِ نقضاً.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ١٦٥).

أمّا غيرُه من الدعاة، الذين قد يقصِدُون لإصلاحِ طائفة معينة؛ فلا جُناحَ عليهم أن يَسْلُكوا في الاستدلالِ على الحقِّ ما يجعلُه مألوفاً للمخاطَبين، وإن لم يبلُغْ في قوة الدلالةِ أن يقعَ من طُلاّب اليقينِ موقعَ التسليم».

□□□□□

الفصلُ الثامنُ:

أدبُ الدعوةِ

العملُ على إنقاذ النفوسِ من وادي الغواية، والإقبال بها على مطالع السعادةِ: مَسْلَكٌ وَعِرٌ لا يَمُرُّ فيه على استقامةٍ؛ إلا مَنْ بَلَغَ في صناعة البيانِ أَمَداً قاصياً.

لا يكفي في الدعوةِ أن يكونَ في يدِ القائمِ بها حُجَّةٌ - أو موعظةٌ - يُلْقيها في أيِّ صورةٍ شاء؛ فإنَّ المخاطَبين يختلفُون ذوقاً وثقافةً اختلافَ الزمنِ والبيئة، ومن اللائق أن تُصاغَ دعوةُ كل طائفة في أدبٍ يليقُ بأذواقِها أو ثقافتِها.

الخبرةُ بما للطَّوائف من أحوالٍ نفسيّة، وإلقاءُ الدعوةِ في الثوبِ الملائم لهذه الأحوال: موكولٌ إلى الداعي ورسوخِه في فنونِ البلاغةِ وأدبِ اللسانِ.

ولا يمنعُنا هذا من تذكيرِ القارئ ببعضِ جُمَلٍ، نوردُها كأمثلةٍ للأدب الذي تخرُج به الدعوةُ في خطابٍ بليغٍ.

من أدبِ الدعوة: الرفقُ في القول، واجتنابُ الكلمةَ الجافية؛ فإنَّ الخطابَ اللَّيِّن قد يتألَّفُ النفوسَ الناشزةَ، يُدنيها من الرشدِ، والإصغاءِ إلى الحُجّة أو الموعظة[١].

قال تعالى في خطاب موسى وهارونَ عليهما السلام: ﴿اذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنّه طغى. فقولا له قَوْلاً لَيِّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾[٢]، ولقّن موسى عليه السلام من القولِ اللَّيِّنِ أحسنَ ما يُخاطَبُ به جبّارٌ يقولُ لقومه: أنا ربُّكمَ الأعلَى! فقال تعالى: ﴿فَقُل هل لك إلى أن تَزَكَّى. وأهديَك إلى ربك فتخشى﴾[٣]، ويندرجُ في سِلْكِ هذا: صَرْفُ الإنكارِ إلى غير معيَّن؛ كقوله ﷺ في النكير على أهل بريرةَ[٤] -وقد عَرَفَهُم بأعيانِهم-: «ما بالُ

---

(١) وليست الشدَّة علامة على (القوة) أو (الصلابة في الحق) أو (الثبات) كما يتخيله البعض.

ولو كانت خيراً؛ لكان أسبقَ الناس إليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم!كيف؛ وهو القائل صلوات الله وسلامه عليه: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه». رواه مسلم (٢٥٩٤).

وفي لفظ عنده (٢٥٩٣) عنها: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه».

(٢) سورة طه: ٤٣.

(٣) سورة النازعات: ١٨.

(٤) قال الحافظ في «التقريب» (٨٦٤١): «بريرة: مولاة عائشة، صحابية مشهورة..».

رجالٍ يشترِطُونَ شُروطاً ليستْ في كتاب الله ؟!»[١].

ومن هذا القَبيلِ: قولهُ عليه الصلاة والسلام: «ما بالُ أقوامٍ يتنزّهون عن الشيء أصنعُه، فواللهِ إني لأعلمُهم بالله وأشدُّهم له خشيةً»[٢].

وشكا إليه -صلواتُ الله عليه- رجلٌ معاذَ بنَ جبل حين كان يُطيلُ بهم الصلاةَ، فاشتدَّ غضبُهُ، ولكنّه احتفظ بعادته الجميلة، فلم يُخاطب معاذاً على التعيين، بل عمَّمَ في الموعظة، وقال: «أيُّها الناس! إنكم مُنَفِّرون، فمن صلّى بالناس فَلْيُخفِّفْ؛ فإنَّ فيهِمُ المريضَ والضعيفَ وذا الحاجة»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤) عن عائشة.

(٢) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) عن عائشة.

(٣) رواه البخاري (٩٠) و(٧٠٢) و(٧٠٤) و(٦١١٠) و(٧١٥٩)، ومسلم (٤٤٦) عن أبي مسعود.

ولكن القصة ليست قصة معاذ؛ كما نبه الحافِظ ابن حجر في «فتح الباري» (٢/١٩٨)، وإنما حدثت مع أبي بن كعب رضي الله عنه، فيما رواه أبو يعلى في «مسنده»(١٧٩٥)و(١٧٩٨)؛ وقد حسن الحافظ ابن حجر سنده!

ولكنَّ الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٧٢) أعله برواية عيسى ابن جارية، فقد ضعفه ابن معين وأبو داود..

وقد قال فيه الحافظ نفسه في «التقريب»(٥٣٢٣): «فيه لين»!

وتعيين المبهم لا يؤثّر في صحة الحديث المذكور، فهو صحيح لا رَيْبَ.

ومن أمثلة هذا الأَدب: أن يُوجِّه الداعي الإنكار- إلى نفسه، وهو يعني السامعَ، كقوله تعالى فيما يقصُّه عن رجلٍ يدعو إلى الإيمان بالله: ﴿وما لِيَ لا أعبدُ الذي فَطَرني وإليهِ تُرْجَعُون﴾[1]؛ فإنه أراد تقريعَ المخاطَبين إذ أعرضوا عن عبادةِ خالقهم، وعكفوا على عبادة ما لا يُغني عنهم شيئاً، فأورد الكلامَ في صورةِ الإنكار على نفسه؛ تَلَطُّفاً في الخطاب وإظهاراً للخُلُوص في النصيحة، حيث اختار لهم ما اختار لنفسِه.

ويُضاهي هذا الأدبَ: أن يضعَ نفسَه بمنزلة السائل المتطلِّب للحقيقة، ويُقيمَ الحجّة في معرض الاسترشاد، حتى تَعْلَقَ بأذهان المُخاطَبين، قبل أن يشعُروا بغرضِه، فينصرفوا بقلوبهم عن الإصغاء إليه.

ومثلُ هذا: ما فعل إبراهيمُ عليه السلام في مُحاجَّة قومِه المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إذ قال إبراهيمُ لأبيه وقومه ما تَعبدُون. قالُوا نعبدُ أصناماً فَنَظلُّ لها عاكفين. قال هل يسمعُونكم إذ تَدْعون. أو ينفعُونكم أو يَضُرُّون﴾[2].

---

(١) سورة يس: ٢٢.

(٢) سورة الشعراء: ٧٣.

وقال تعالى في تعليم رسوله الأكرم كيف يدعُو إلى الحقّ: ﴿قُل الله وإنا أو إيّاكم لعلى هُدىً أو في ضلالٍ مُبين﴾[1]، فإذا لم يُظهر الداعي أنَّه على بيِّنة من أمرِه، وألقى الكلامَ في هيأة المتردِّدِ الذي لايتيقَّنُ أنَّ الهدى في جانبه؛ كان كالمستعين برأي المخاطَبِ في البحثِ عمَّا هو حقٌّ ورُشْدٌ، فتنحلُّ في قلب هذا المخاطَبَ عُقدةُ التعصُّب.

وربما طَمِعَ في الداعي وأخَذَه إلى مذهبه، فَيُقبل على النظر بجدٍّ حتى يمرَّ به مغالبةُ الداعي على الآيات البينات، فإذا هو ينظُر إلى الحق؛ فإمّا إيماناً بعدُ وإمّا عناداً.

ومنْ لُطف الدعوة: أن تُناديَ المدعوَّ بلقبه الشريف، وتنعَتَهُ بوصفٍ شأنُه أن يبعثَ صاحبَه على قَبُولِ الموعظة، أو الإنصافِ في المجادلة.

وهذا الأدبُ مقتَبَسٌ من مثلِ قوله تعالى: ﴿يا أهلَ الكتاب﴾، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾، ﴿يا أولي الألباب﴾، ﴿يا أولي الأبصار﴾.

---

(١) سورة سبأ: ٢٤.

وقـد وَصَفَ النبيُّ صلى الله عليـه وسلم هِرَقْلَ في كتابِ دعوته إلى الإسلام بعظيم الروم[١].

ويتأكّد مثلُ هذا الأدب في موعظة الصغير للكبير والمرؤوس لرئيسه، ولا سيّما حيث تُضرَب على الدولة طبائعُ الاستبداد.

وقـد يفتتحُ الداعي للرؤساء خطابَه بكلمـة: «ائذن لي»؛ قال أبو[٢] شُريح لعمرو بن سعيد وهو يبعثُ البعوثَ إلى مكة: «ائذن لي أيها الأمير! أُحَدِّثْك قولاً»، وروى له قولَه صلى الله عليه وسلم: «إنّ مكّة حرَّمها اللهُ ولم يُحَرِّمها الناسُ، فلا يحلُّ لامرىءٍ يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يسفكَ فيها دماً»[٣]... إلخ الحديث. فقال له عمرو بن سعيد: «نحن أعلمُ بحرمتها منك»، فقال له أبو[٢] شُريح: «إني كنتُ شاهداً وكنتَ غائباً، وقد تأمَّرَنا رسولُ الله ﷺ أن يُبلِّغَ شاهدُنا غائبَنا، وقد أبلغتُك، فأنتَ وشأنُك».

---

(١) كما رواه البخاري (رقم: ٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس، عن أبي سفيان.

(٢) في «الأصل»: ابن! وهو تحريفٌ.

(٣) رواه البخاري (١٨٣٢)، ومسلم (١٣٥٤).

يذهبُ بعضُ الناسِ في الإنكار على من يراه مُبْطِلاً مذهبَ الفَظَاظةِ في القول[1]، فيرميه باللعنِ والشتائم.

وفنُّ الشتم والهجاء مما يَبْذُرُ الشقاقَ الذي نُهينا عنه، وربّما حمل المُبْطِلَ على التعصُّب لرأيه أو هواه، وقَبَضَ عليه باليمين والشمال.

والناسُ يعرفون أن طريقة السِّباب في المجادلة؛ إنما يسلكُها العاجزُ عن إقامة الحُجَج الدامغة، فترى المقالَ الذي يُحَرَّرُ في سعة صدرٍ وأدبٍ مع المخالف يجدُ من القَبول وشدَّة الأثر في نفوس القرَّاء؛ ما لا يجدُهُ المقالُ الذي يُخالطُه السَّفَهُ والحماقة[2].

وكذلك ترى المستَيْقنَ أَنه على حقٍّ، مطمئنَّ الخاطر، آمناً على مذهبه من صَوْلَة الباطل، فينطِقُ من أناةٍ وتخيُّرٍ للأَقوال الصائبة.

---

(١) وهو (مذهب) يتقنه كل أحد (!)؛ لكن لا يسترسل مَعَهُ ويستمرُّ به إلا كل من لم (يتقن) آداب الشرع، وأخلاق الإسلام.

(٢) ولكن هناك تفصيل؛ فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: « من سألني مستفيداً حققت له، ومن سألني متعنتاً نقضته »، كما في « الدُّرَر الكامنة» (١/ ١٥٣) لابن حجر.

فالمخالف الباحث عن الحق غير المخالف المعاند المجادل؛ فإن من المجادلين المعاندين مَنْ إذا لنت له حسب لينك ضعفاً، فضاعف عناده، وكثَّر باطلَه !!

أمّا مَنْ لم يكن على بصيرة من رأيه أو عقيدته؛ فإنه ينزعجُ عند المجادلة، ويَطيشُ به الجدَلُ حتى يقذفَ بالسِّباب، ويلفظَ بالكلام من قبلِ أن يُقيم له وزناً.

قد يكون حديثُك مع طائفةٍ باعوا نفوسَهم بمتاع هذه الحياة واندفعوا لإغواءِ الأُمة، والكيدِ لشريعتها وحياتها السياسية، بجميع ما مَلَكُوا من صفاقةٍ وعنادٍ وسوء طويَّة، ولعلَّ الناس يَعذِرونك حين تتصدّى لكفٍّ بأس هؤلاء، ويجري على لسانِك أو قلمِك في خلال جدالهم كلمةٌ تتهكَّم بعقولهم، أو تزدري آراءهم، أو تُنَبّه على مكرٍ انطوت عليه دعايتُهم.

فإنك إنْ تهكَّمْتَ بعقول هؤلاء، أَوِ ازدريتَ آراءهم؛ فإنما تضعُها في مواضِعِها وتَمَسُّ خُيَلاءَهم بما يُخفِّفُ مِن غُلَوائها.

وإن رفعْتَ الغطاءَ عن مكايدِهم؛ فإنما تجادِلُ قوماً يجعلون مكانَ الصريح رمزاً، ومكان الطعن غمزاً، ويُلبِسُون أقوالَهم المُعَبِّرةَ عن آرائهم تردُّداً أو ريباً.

الفصل التاسع:

سياسة الدعوة

ضربنا لك الأمثلةَ في المقالِ السالفِ، للأدب الذي ينبغي أن يُصاغَ فيه خطابُ الدعوة.

أما هذا الفصلُ؛ فمعقودٌ في طُرُقٍ من أدب اللسان، يُراعيها الداعي ويأخذُ بها الدعوةَ، فيكون لها في النفوس المستعدة للخير أثرٌ حميدٌ.

إذا كان أدبُ الخطاب يقومُ على البراعةِ في فُنون البلاغة؛ فإنّ الطرقَ التي نبحثُ عنها في هذا الفصل؛ إنما تقومُ على نَظَرٍ تَقَلَّبَ في أحوال الجماعات أطواراً، ودَرَسَ سُنَنَ الله في الخليقة، فعرف كيف يسوسُ النفوسَ الجامحةَ، ويردُّها إلى قَصْد السبيل.

لا يسهُلُ على القلم استيفاءُ الحديثِ عن هذه الطرقِ، ولا يسعُهُ إلا أن يضربَ لها أمثلةً، وَيكلَ الأمرَ بعدها إلى أَلمعيَّتكَ؛ فهي التي تتناولُ المعنى القليلَ فتجعلُه كثيراً، وتتلقّى القولَ مُجملاً فتفصِّلُه تفصيلاً.

مِنَ الحكمةِ في الدعوة: أن تُناجيَ بها الجاهلَ أوِ الغافلَ في خَلوةٍ؛ إبقاءً للسَّتْر عليه، ورغبةً في حُسن إصغائه إليك؛ فإنَّ كثيراً منَ الناس؛ مَنْ إذا ألقيتَ عليه النصيحةَ في عَلَنٍ؛ أخذَتْهُ العِزَّةُ، وثَنَى عِطْفَهُ[1] عَنِ الاستماعِ أوِ الامتثال[2].

فإذا تصَامَمَ عن قَبُولها في خَلْوةٍ؛ ساغ لك أن تُلقيَها عليه في ملإٍ، لعلّه يتألَّمُ من الفضيحة، ويحذَرُ سوء الأُحدوثةِ، فيعودُ إلى سيرةٍ نقّيةٍ، ويذَّكَّرُ كما يذَّكرُ أولو الألباب؛ قال تعالى في قصّة نوحٍ عليه السلام: ﴿قال ربِّ إني دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً. . . .﴾، إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دعوْتُهم جِهاراً. ثمَّ إِنِّي أعلنْتُ لهم وأسرَرْتُ لهم إسراراً﴾[3].

ومِنْ حكمة الجمعِ بين الإِعلان والإِسرار: إِزالةُ ما

---

(١) أي: أعرض وتكبر.

وانظر «تفسير غريب القرآن» (ص٢٩) للإمام ابن قتيبة.

(٢) فالواجب ملاطفته في إبداء النصيحة، والاستسرار في تقديمها له؛ حتى تكون عوناً له على الرجوع إلى الحق، والإقلاع عن نقيضه.

(٣) سورة نوح: ٤-٩.

يقعُ في نفس المدعوِّ مِن اتِّهام الداعي؛ بأنه ما أراد من دعوتِه علانيةً إلا تلويثَ عِرْضه، وإِذاعةَ كلمةِ السَّوءِ عن سيرته.

ومنْ حُسن النظر: أن تكونَ الدعوة إلى المَطَالب العظيمة بطُرُقِ الترقِّي، كأن يبتدىء المُصْلِحُ بما هو أيسرُ عملاً، أو أقربُ إلى المألوف لدى الأمّةِ[1]، أو أظهرُ حكمةً لِعقولِهِم.

وعلى هذه القاعدة وضع الإسلامُ سياسَتَهُ:

فتجدُ في تاريخ التشريعِ أنَّه أمر بالصلاة، وسكت عن الكلام في أثنائها، ثم نهى عنه[2] وجعلَه من مُبْطِلاتِها.

وأمر بالإنفاق على وَجْهِ التطوُّع، ثم شرع فريضةَ الزكاة.

---

(١) دون تساهل في تبليغ الحق، وبيان الحقيقة.

(٢) كما في حديث معاوية بن الحكم السُّلَمي الذي رواه مسلم في «صحيحه» (٥٣٧)؛ وفيه قوله ﷺ: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس..»، وبابه: «تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته».

وهذا الحديث هو المعروف بـ «حديث الجارية»؛ وهي التي أراد سيدها إعتاقها، فسألها النبي ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء، فقال ﷺ لسيدها: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة».

وَنبَّهَ على مفسدة الخمر بقوله تعالى: ﴿يسألُونك عن الخمرِ والميسرِ قُل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس وإثمُهما أكْبَرُ من نفعهما﴾[1]، ثم منع منها في حال الصلاة خاصَّةً؛ فقال: ﴿لاتَقربُوا الصلاةَ وأنتم سُكارى حتَّى تعلَموا ما تقولُون﴾[2]، ثمَّ حرَّمها في كلِّ حالٍ تحريماً لا هَوَادَةَ فيه، فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنَّما الخَمرُ والميْسرُ والأنصابُ والأزلام رِجْسٌ مِن عَملِ الشَّيطانِ فاجْتَنِبُوهُ لعلَّكم تُفلِحون﴾[3].

ورُوِي عن بعض الصحابة أنه قال: لو جاءنا رسولُ الله ﷺ بهذا الدِّين وبالقرآن دفعةً؛ لثقُلتْ هذه التكاليفُ علينا، فما كُنَّا ندخلُ في الإسلامِ، ولكنَّه دعَانا إلى كلمة واحدة، فلمّا قَبلْناها وعرفْنا حلاوةَ الإيمان؛ قبلْنا ما وراءهُ كلمةً بعدَ كلمةٍ، على سبيل الرِّفقِ، إلى أنْ تَمَّ الدِّينُ وكمَلت الشريعةُ[4].

ويُحكى عن عمر بن عبد العزيز: أنَّ ابنه عبد الملك

---

(1) سورة البقرة: ٢١٩.

(2) سورة النساء: ٤٣.

(3) سورة المائدة: ٩.

(4) انظر في مسألة (التدرج في التشريع): «تاريخ التشريع الإسلامي» (ص ١٨-١٩) محمد الخضري، و«تاريخ الفقه الإسلامي» (ص٤٨-٥٢) عمر الأشقر، و«المدخل للتشريع الإسلامي» (ص ٨٤-٨٥) فاروق النبهان، =

قال له: ما لك لا تُنْفِذُ الأمورَ؟ فوالله لا أُبالي لوْ أنَّ القُدورَ غَلَتْ بي وبك في الحقِّ، فقال له عُمر: لا تعجلْ يا بُنيَّ! فإنَّ الله ذمَّ الخمرَ مرَّتين، وحرَّمها في الثالثة؛ وإنني أخافُ أن أحملَ الحقَّ على الناس جُملةً، فيدفعوه جُملةً؛ وتكونَ من ذا فتنةٌ[1].

ويشابهُ هذا: أنْ يقصدَ الدَّاعي إلى أمرٍ فيه مشقَّةٌ، فيضعَ أمامَه تمهيداً يُخَفِّفُ وقعَه، ويُقلّل شأنَه؛ حتى لا تُكْبِرَه النفوس، وترتخيَ دونه العزائمُ خَوَراً.

ومثالُ هذا: ما سلكه التنزيلُ في التكليفِ بفريضةِ

= و«التشريع والفقه في الإسلام» (ص ٥٢-٥٦) مناع القطان.

لكنَّ ها هنا أمراً مهماً؛ هو إظهار الفرق بين التدرج في (التشريع)، = والتدرج في (التطبيق)؛ إذ لا يجوز قياس الثاني على الأول، واتخاذه أصلاً يبنى عليه؛ لأن الشريعة قد كملت، ونعمة الدين قد تمت.

ولكن؛ للداعي إلى الله - وبخاصة في ظل غياب دولة الإسلام الشاملة - أن يتلطف في دعوة الناس إلى (تطبيق) الأحكام الشرعية؛ بحيث يظهر لهم منها ما يعينهم (به) على يسر الالتزام، وحسن التطبيق، مع عدم كتمه حقائق الشرع، أو إخفائه أصول الحلال والحرام.

والمسألة - حقاً - بحاجة إلى مزيد بيان وتفصيل؛ فلعل الله سبحانه ييسر من أهل العلم وطلابه من يكشف عنها غموضها، ويميط عنها لثامها، والله الهادي.

(١) «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» (ص٨٨) لابن الجوزي بنحوه.

الصيام؛ حيث شرعَه أوّلاً في أمر مُجمَل فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمَنُوا كُتبَ عليكم الصيام﴾[1]، وذكر أنَّ هذا النوعَ من القُربةِ قد فُرض على الأُمم السالفة، فقال تعالى: ﴿كما كُتب على الذين من قبلِكم﴾، فهو عملٌ مألوفٌ وشريعةٌ غيرُ خاصّة.

وفي هذه التذكرة ما يُدخِلُه في قَبيلِ السُّنن الجارية، ويجعلُه أمراً هيِّناً، ثم أشعرهم بأنَّ أيامَهُ في الحساب قليلةٌ؛ فقال تعالى: ﴿أيّاماً معدودات﴾، وبعد أن هيَّأ النفوس لقَبُول فريضته قال: ﴿شهرُ رمضانَ الذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ هُدىً للناس وبيِّناتٍ مِنَ الهُدى والفُرقانِ فمن شَهِدَ منكُم الشهرَ فليصُمْهُ﴾.

وجرى التنزيلُ على هذه السُّنَّة عند الترغيبِ في أمرِ صعبِ المركب، شديد الأثرِ في النفس، وهو الصبرُ على الأذى، ومقابلةُ الإساءة بالعفوِ، فأمر بالعدل في المُجَازاة، ونهى عن تجاوُزِ المِثْل في العقوبَة، فقال: ﴿وإنْ عاقبْتُم فعاقِبوا بمثل ما عُوقبتم به﴾[1]، ثم بيَّن في قوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة: ١٨٣ - ١٨٥.

﴿ولئن صبرتم لَهُوَ خيرٌ للصَّابرين﴾ أنَّ الأكملَ لهم: الإغضاءُ عن السَّيِّئةِ، وتركُ المُؤاخذةِ عليها.

فالصَّفْحُ عنِ الأذى -مع القدرةِ على الانتقام- ضربٌ من الكَرَم، ومظهرٌ منْ مظاهر الرحمة.

ثمَّ قال تعالى: ﴿واصبرْ وما صبْرُكَ إلاّ بالله﴾[٢]، فرغَّب في الصبر بطريقٍ أبلغَ؛ إذ وجَّهَ الخطابَ به إلى الرسول الأعظم ﷺ، وهو أسرعُ الناس إلى الاستقامة على الطريقةِ، فيجدُون من سُنّة التأسِّي به نشاطاً للطاعة، وباعثاً على التجمُّل بالصبر، وإن ثقُلتْ على النُّفوس وَطْأتُه.

ويُقارِبُ هذا النوعَ منَ السياسة: أنْ يأخُذَ الدَّاعي في تقرير المصالح بوجهٍ عامٍّ؛ حتَّى يأنَسَ لها الناسُ، ويتفقَّهوا في طُرُق الخير على سبيل الإجمال، ثمَّ يندُبَهم إلى الأعمال المُندرجةِ تحتَها ببيانٍ وتفصيلٍ؛ فإنَّ من السَّهْلِ على البشرِ قَبُولَ القضايا الكُلِّيَّةِ، وقلَّما نازعوا في صحَّتها.

(١) سورة النحل: ١٢٦.

(٢) سورة النحل: ١٢٧.

وأكثرُ ما يقع منهم الإنكارُ والاختلافُ في المسائلِ الجزئيَّةِ وأحكامِ النوازلِ المُعيَّنة؛ وعلى هذا النَّمَط أدارَ الإسلامُ سياسَتَهُ، فأسَّس مُعظمَ قواعدِه العامَّةِ بمكَّةَ، وشرَعَ أكثرَ الأحكامِ الفرْعيَّة بالمدينةِ المنَوَّرةِ[1].

ومِنْ حُسن السياسةِ: أنْ لا يجهرَ برأيه الصَّريح في صدر مقالِه، وإنَّما يبتدئُ بما يَخِفُّ على المخاطَبينَ سماعُهُ؛ منَ المعاني الحائمةِ حولَ الغَرَضِ، ثم يُعبِّرُ عنِ المرادِ بلفظٍ مُجمَلٍ، ويدنو مِنْ إيضاحِه شيئاً فشيئاً، حتّى لا يُفصِحَ عنهُ إلا وقد ألِفَتْه نفوسُهم، وهدَأَتْ له خواطِرُهم.

وعلى هذه الطريقة جرى ذلك المؤمنُ منْ آلِ فرعونَ[2]، فقد كان يكتُم إيمانَهُ، وهو يُحِبُّ أَن يُظهِرَه وَيدْعُوَ قومَه إلى مثلِه، وكان يخشى -من التصريحِ بعقيدته- بادرةَ غضبِهم أوِ انتقامِهم منه، حتى اغتنمَ وقتَ إجماعِهم على قتلِ موسى عليه السلام فُرصةً، وقام يُنكِرُ عليهم هذه المؤامرةَ المُخْزِيَةَ، وتخلَّص إلى أنْ دعاهم إلى

(١) وهذا تنبيه حسن.

(٢) وقصته في سورة غافر: ٢٨-٣٣.

الإيمان بما بُعث به هذا الرسولُ دعوةً ظاهرةً، قال تعالى: ﴿وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فِرعونَ يكتُمُ إيمانَه أتقتُلون رَجُلاً أنْ يقولَ رَبِّيَ اللهُ وقد جاءكم بالبيِّنات من رَبِّكم﴾.

فاتَحَهُم بالإنكار على قتله، وهو لا يدُلُّ على أنه مُصدِّقٌ برسالته؛ إذ قد يَنهى العاقلُ عن سَفْك دمِ الرَّجُل أو اضطهاده، وهو مِنْ أبغض الناس إليه؛ تألُّماً من مشهد الظلم، أو حَذَراً ممّا ينشأُ عنه من فتنةٍ، ودلَّ بقوله له: ﴿أنْ يقول رَبِّيَ اللهُ﴾ على ما لهذا الرجلِ من فضلٍ في العقيدة، وأومأ إلى أنه لم يَجِىءْ شيئاً نُكْراً يستحقُّ به هذه العقوبةَ الصارمةَ، وذكَّرهم - إذ قال: ﴿وقد جاءكم بالبيِّنات من ربِّكم﴾- بالدلائلِ القائمةِ على صدقه في دعوى الرسالة، وقد أخذ يتقرَّبُ بهذه الجُملةِ من دعوتهم إلى الإيمان به، ولم يُرِدِ التظاهرَ بأنه مِنْ شيعته، فعزلَ نفسَه عمَّنْ جاءهم بهذه البيّنات، وأضاف مجيئَها إليهم خاصَّةً، ثمَّ استرسلَ في موعظته المنسوجةِ في أدب الإنصاف، إلى أنْ صَدَعَ ببُطلان نِحْلتهم، ودعاهم إلى دين الحقِّ بقوله الصريح، قال تعالى فيما يقصُّه عنه: ﴿ويا قومِ ما لِي أدعوكُم إلى النَّجاة وتَدْعُونني إلى النار. تَدْعُونني

لأكفرَ بالله وأُشْرِكَ به ما ليس لي به علمٌ وأنا أدعوكُم إلى العزيز الغفّار﴾.

قد يسكُتُ المرشدُ عن بعض ما يكونُ حقّاً، أو يتعرّض له بعبارة مُجْمَلَةٍ أو ذات وجهين، إذا لم يُساعِدْهُ الحالُ على أن يصدَعَ به، ورأى ضررَ التصريحِ به أَرجحَ منْ نفعه، وليس له أن يقولَ غيرَ الحقِّ بقصد أن يتألَّف أصحابَ النِّحَل والمذاهبِ الزائغة، ويستدرِجَهم إلى ما يُورِدُه بعدَه، أو يُثْبِتُهُ في حديثه من الحقائق، والدلائلِ الفاضحة لمعتقداتهم وأوهامهم.

وزعم الرازيُّ[1] صحَّةَ هذا الصنيع! وعدَّه من حِكْمَة المُتشابه في التنزيل، وحَمَلَ عليه قولَ إبراهيم عليه السلام في مُحاجَّة قومه الواردة في القرآن: ﴿هذا ربي﴾[2]، مشيراً إلى النَّجمِ، ثمَّ القمرِ، ثمَّ الشمسِ.

---

(١) انظر «مفاتح الغيب» (١٣/ ٤٧-٦٢) للفخر الرازي المذكور!

وللرد عليه؛ انظر «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٤٨) و(٦/ ٥٤٨) و(١٣/ ٥٤٧)، و«منهاج السنة» (٢/ ١٩٦) كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) سورة الأنعام: ٧٨.

وقد ذكر المُحقّقونَ للمتشابهِ وجُوهاً أظهرَ من هذا الوجهِ، وفهموا قولَ إبراهيمَ عليه السلام على غير هذا التأويلِ[١].

ومِن حكمة الداعي أن يسبقِ إلى العمل بما يأمُرُ؛ فقد يكونُ اقتداءُ الناس بأفعال المُصْلِح أقربَ مِن اتبّاعهم لأقوالهِ، ويشهدُ بهذا سيرةُ النّبي ﷺ في شرع الأحكام؛ فتراه في بعضِ الأحيان يُصَرّح بالإذْنِ في أشياءَ فلا يُبادرون إلى فعلها، ويستمرُّون على الإحْجام عنها حتّى يُقَرِّرَها بالعمل ثانياً.

تجدُهُ أذن لهم - وهم على سَفَر - في الإفطار شهرَ رمضان، وبقي هو صائماً - فلم يقطَعُوا صومهَم حتى عَمَدَ إلى الفِطْرِ فخفُّوا إلى الاقتداء بفعله، وأفطروا[٢].

وأذِن لهم في نكاحِ مِن كُنَّ أزواجاً لأدْعيائهم، فكَبُرَ عليهم أن يخرُقوا هذه العادةَ، حتى تزوّج ﷺ بزينبَ بعد

---

(١) انظر كلام شيخ الاسلام ابن تيمية في المصادرِ المتقدّم ذِكْرُها؛ ففيها غُنْيَةٌ للباحث عن الحقّ.

(٢) والحديث في ذلك رواه مسلم (١١١٤) عن جابر بن عبدالله.

أن فـارقَـهَـا مـولاه زيدٌ؛ وفي هذا المعنى نَزَلَت آيةُ ﴿فلمّـا قـضى زَيدٌ منها وَطَراً زَوَّجناكَـهَا لكَيْلاَ يكُون على المؤمنينَ حَـرَجٌ في أزواجِ أَدعِيائهـم إذا قَضَـوْا مِنْهُن وطَراً وكـان أمرُ اللّهِ مفعولاً﴾[1].

ومن الوسائلِ التي يكونُ لها أَثَرٌ في تـألُّف الجاهلين أو المُفسدين، وتهيئتِهم إلى قَبُول الإصلاح: بَسْطُ المعروف في وجُوهِهم، وإرضـاؤهم بِشيءٍ من مَتَاع هذه الحياة؛ فإنّ مُواجَـهَتَهُم بالجميل، ومُصـافحتهم براحةٍ كريمةٍ قد يعطفُ قلوبَهم نحوَ الدَّاعي، ويُمهِّدُ السبيلَ لِقَبُولِ ما يعرِضُه عليها من النصيحـة، والنفوسُ مطبـوعـةٌ على مُصـافاة من يُلْبِسُها نعمةً[2]، ويُفيض عليها خيراً.

ولمثلِ هذه الحكمةِ ذكـر القرآنُ في مـصـارف الزكـاة صِنْفَ المؤلّفَةِ قلوبُهم؛ فقال تعالى: ﴿إنّما الصَّدقاتُ لِلْفُقراءِ

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٧.

وانظر «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص ١١٢- ١١٣).

(٢) ومما يروى في هذا المعنى: «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها».

وهو حديث لا يصح؛ موقوفاً ولا مرفوعاً!

انظر «السلسة الضعيفة» (٦٠٠) لشيخنا الألباني.

والمساكينِ والعاملينَ عليها والمُؤَلَّفَة قلوبُهُم وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبيل اللّهِ وابنِ السَّبيلِ﴾[1].

□□□□□

(١) سورة براءة: ٦٠



الفصلُ العاشرُ:

الإذنُ في السكوتِ عن الدعوة

إنما تسقُطُ فريضةُ النُّصْحِ والدعوة إلى الحق في موضعين:

أحدهما: أن ينشأَ عن الأمر أو النهي مفسدةٌ أعظمُ[1]، وذلك ما تقتضيهِ قاعدةُ ارتكاب أخفِّ الضَّررين، إذا تعارَضَا.

ومن شواهدِه: أنَّ النبيَّ ﷺ كَرِهَ مِنَ الصحابة تناوُلَهُمُ الأعرابيَّ حين أَخذ يبولُ في المسجد، ونهاهم عن ذلك، وقال: «إنَّما بُعِثْتُمْ ميسِّرين ولم تُبْعَثوا مُعسِّرين»[2] فالبولُ في المسجد: تلطيخٌ لمحلِّ العبادةِ بنجاسة، وفي قَطْعهِ عمَّن شَرَعَ فيه مفسدةٌ أكبرُ منه، وهي ما يَحْدُثُ عنه

---

(١) انظر رسالتي «ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند شيخ الاسلام ابن تيمية» ،فقد أقمتُها على تَقْعيد هذا الأصل.

(٢) رواه البخاري (٦١٢٨)،وأبو داود (٣٨٠)والترمذي (١٤٧) وأحمد (٢/ ٢٣٩)، وابن ماجه (٥٢٨) البخاري (٦١٢٨).

وانظر «شرح المسند» (١٢/ ٢٤٤-٢٤٦) للعلامة أحمد شاكر، و«إرواء الغليل» (١٧١) لشيخنا الألباني.

من علَّةٍ في البَدَن؛ والنَّجاسةُ تُزال بالماء،

ومِنَ العِلَلِ ما ينبو عنه رأيُ الطبيب ويخونُه فيه الدواءُ، واعتناءُ الإسلام بالمحافظةِ على سلامة الأبدان غيرُ قليلٍ.

ويُماثِلُ هذا: أنْ يكونَ صاحبُ الضَّلالة ممَّنْ يَطْغى على الداعي، ويستنكفُ أن يكونَ بمنزلة الصَّادر عن إرشادهِ أو تذكيرهِ، فيأخذُهُ الإعجابُ بسطوته إلى ارتكاب جهالةٍ أفظعَ من الأُولى، حتى يَغيظَ داعيَه إلى الخير، ويتظاهَرَ بالغُلُوِّ في مخالفة أمرهِ أو نهيهِ.

ولا يدخُلُ في هذا القَبيل: أن تجريَ عادةُ العامَّة بترك سُنَّة أو فعل بدعةٍ، ويكونَ أمرُهم أو نهيُهم سببَ ثورةٍ لا تتجاوزُ القلمَ أو اللسانَ، فإذا شدَّ المصلحُ قلبَه بإخلاصٍ، وتحرَّى الأدبَ جَهْدَهُ؛ فلا جَرَمَ أن يكونَ لدعوتهِ الأثرُ النافذُ والعاقبةُ الحسنةُ.

وليس السكوتُ عن صنيعهم أو التمحُّلُ في تأوُّله بصحَّته إلاَّ مُداهنةً، وإيثاراً للخَلْق على الحقِّ، ولا يلبَسُ هذه الخَصْلَةَ المنكَرَةَ إلاّ قَصيرُ النَّظرِ أو ضعيفُ الإرادة.

ولا حَقَّ لأحدٍ في أن يكتُمَ ما فَرَضَ اللهُ معرفتَهُ؛ مُتَعَذِّراً بالخوفِ من أن يقعَ المخاطَبُون في سُوءِ فَهْمٍ، أوِ اضطرابِ فكرٍ؛ فإنَّ هذا النوعَ مِنَ العلم لا تَحَارُ في إدراكه العقولُ، وإنَّما يقومُ مثلُ هذا معذرةً للسُّكوت عَنِ الحقِّ الذي لم يُكلَّف الناسُ بعلمه، وهو المرادُ بقول الإمام عليٍّ كرّم اللهُ وجهَهُ[1]: «حدِّثوا الناس بما يفهمون، أتُحبُّون أَن يكذَّب اللهُ ورسولُه؟»[2].

ومن هذا: حديثُ عائشةَ رضي الله عنها، قالت: قال النبيُّ ﷺ: «يا عائشةُ! لولا أنَّ قومَك حديثٌ عهدُهم بكفرٍ -وفي رواية: بجاهليَّة_ لنقضْتُ الكعبةَ، فجعلْتُ لها بابين: بابٌ يَدْخل الناسُ وبابٌ يخرجون»[3].

والذي تحاماه ﷺ: أنْ يظُنَّ بعضُهم - لقُرْبِ عهدِهم

---

(١) تخصيص الصحابي الجليل (علي بن أبي طالب) -رضي الله عنه. بوصف (الإمام) دون سحب هذا الوصف عند الإطلاق على بقية الخلفاء الراشدين: من بدع الشيعة الشنيعة التي وصلت إلى ألْسِنة أهل السنة.

وكذا وصفه بـ(كرم الله وجهه).

(٢) رواه الإمام البخاري في«صحيحه» (١٢٧)، ورواه آدم بن أبي إياس في «العلم»، وأبو نعيم في «المستخرج»؛ كما في «الفتح» (١/ ٢٢٥).

(٣) رواه البخاري (١٥٨٦) و (١٢٦)، ومسلم (١٣٣٣).

بالإسلام- أنه غيَّرَ بناءَ الكعبةِ لينفردَ بالفَخْرِ عنهم[1].

ثانيهما: أَنْ يُوقِعَهُ الأمرُ أوِ النهيُ في بلاءٍ، ويُلْحِقَ به ضَرَراً فادحاً.

وعدَّ الإمامُ الغَزَاليُّ[2] مِنْ هذا البلاءِ: الاستخفافَ به على وجهٍ يُزْرِي بكرامته.

وقد يكونُ هذا عُذراً في صَرْفِ الدعوةِ عن طائفةٍ خاصَّة، عُرِف منها هذا الخُلُقُ اللئيمُ، ولا يَصِحُّ أن يكون في الإحْجامِ عن دعوة الأُمّة إلى صالح، وإن وُجد فيها طائفةٌ تُطلقُ ألسنَتَها بِسِباب المُصْلِحين، وتُباهِتُهم في المجامع، أو الصُّحُفِ بغير حسابٍ.

وقَد اتَّخذَ بعضُ المُفْسدين هذا السِّبابَ والمُبَاهتةَ سلاحاً يشْهرُونه في وجوه مَنْ يتعرَّضون دعايَتَهم بالإنكار.

ولو كان مثلُ هذا الأذى يُجيزُ لأهل العلم أن يُخَلُّوا

---

(١) قارن بكتاب «مقام إبراهيم» (ص ١٠٢) للعلامة المُعَلِّمي، وتعليقي عليه.

(٢) انظر «إحياء علوم الدين (٣ / ٣٢١) له.

سبيلَهم، ويُغْمِضُوا عن مُنكَرَاتِهم؛ لَسَرَتْ تلك الدعايةُ سَرَيانَ السُّمِّ النَاقِعِ، ولوّثَتْ هذه الفِطرَ السليمةَ برِجْسِ الغِواية.

ولا مِرْيَةَ في أنَّ بَلِيَّةَ الإغْواء أشَدُّ إيلاماً لعُقلاء الأُمَّة وأَسوأُ عاقبةً مِنْ أن تُنْهَشَ أعراضُهم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ.

ويرى الشيخُ ابنُ عَرَفَة: أنَّ خوفَ العَزْل مِنْ المنصبِ لا يُعَدُّ عُذْراً يُسْقِطُ عنِ الرجُلِ فريضةَ النهي عن المنكر.

وإذا كان بعضُ مَنْ لا يَرْجُون لله وَقَاراً قد يَدْعُوه الحرصُ على إحراز سُمعةٍ فاخرةٍ إلى أن يذودَ عنِ المصلحة العامّةِ ويزدريَ الولايةَ، ولا يُبالِيَ أن يُصبِحَ عاطلاً من قلادتِها؛ أفلا يليقُ بأهلِ التوحيدِ الخالصِ- ما داموا يستيقِنُون أنَّ الله يرزقُ الداعيَ إلى الإصلاح، من حيثُ لا يحتسبُ -أنْ يكونُوا أزهدَ الناس في المنصبِ الذي يَطْوي ألسنَتَهم عنْ قولِ الحقِّ، أو يحملُهم على مُجاراةِ رئيسٍ لا ينهى النفسَ عنِ الهوى؟!

فإذا اعتقدَ الداعي إلى الإصلاحِ بما ينالُهُ من عذابٍ وبلاءٍ؛ فهو في سَعَةٍ واختيارٍ مِنْ تَحَمُّلِ الأذى أو طَلَبِ

السَّلامة؛ فإنْ شاء أَخَذَ بالعزيمة، ورَفَعَ صوتَه بالدَّعوة إلى الحقِّ، وإنْ شاء تمسَّك بالرُّخصة التي يتمسَّكُ بها المُستَضْعَفون منَ الرجال والنساء!

وقد آثَرَ جماعةٌ مِنْ عُلماء الإسلام لقوَّة غَيْرتِهم على العدل، وشدَّة رغبتِهم في الصالحات أن يأخُذُوا بالعزم، ويُحافظوا على الجَهْر بالإرشادِ، وإن كَرِه المُفْسدون جَهْرَهم، وأذاقوهم من ألوانِ جورِهم عذاباً أليماً (١).

ومِنْ قِصَصِهم في هذا الشأن: أنَّ الملكَ إسماعيلَ والَى الإفرنجَ؛ وسلَّم لهم «صَيْدا» وغيرَها مِنْ الحُصون؛ ليُنْجِدُوه على الملك نجم الدين أيُّوب؛ فأنكر عليه الشيخُ عزُّ الدين بن عبدالسلام هذه الفَعْلَةَ الخَائنةَ، فَغَضِبَ عليه الملكُ وَعَزَلَهُ عن مناصبه، وأمر باعتقاله، ثُمَّ بعث إليه مَنْ يَعِدُهُ ويُمنِّيه؛ لعلَّه يرجِعُ عن إِنكاره ويرضى، فجاءه الرسولُ، وقال له: تُعادُ إليك مناصبُك وزيادةٌ، وما عليك إلاَّ أن تتكسَّرَ للسُّلطان وتُقبِّلَ يدَه لا غير! وما كان جوابُ الشيخِ إلاَّ أنْ قال له: واللهِ؛ ما أرضاه أن يُقبِّلَ يدي فضلاً

(١) انظر ما تقدم بيانه وتفصيله (ص ٥٧).

أن أُقبِّلَ يدَه، ياقومِ! أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ [1]!

□□□□□

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» (٨/ ٢١٠) بنحوه.



الفصل الحادي عشر:

عِلَلُ إهْمالِ الدعوةِ

ما بالُ الرجلِ يعرفُ مناهجَ الصلاح، ويُبصرُ طائفةً مِنْ قومه يتهافتون على عَمَايةٍ، أو يَهيمُون في جهالةٍ، ولا تنهضُ به الهِمَّةُ ليعملَ على إفاقتِهم من سكْرتهم، وإراءتِهم معالمَ فوزِهم؟!

أَخَذْنا نبحثُ عن منشأ هذا التقصيرِ، ونُديرُ النظرَ في البحث كرَّتَيْنِ، فرأينا مدارَ عِلَّتِهِ الفاقرة؛ على عَشَرةِ أسبابٍ:

١- المُداهَنَةُ؛ فمِنْ أهل العلم مَنْ يرى ذا جاهٍ أوْ رياسةٍ، يهتِكُ سِتْرَ الأدبِ، أو يَعْثُو في الأرضِ فساداً، فيتغابى عن سَفَهِهِ أو بَغْيِه، ويطوي - دونَه - التذكرةَ والموعظةَ؛ ابتغاءَ مرضاتهِ، أو حِرْصاً على مكانةٍ أو غنيمة ينالُها على يديه!

ومن البليّة: أنَّ المُترَفين - ومَنْ ينحُو نحوَهم في الزَّيْغ والغرورِ- لا يكْتَفُون مِمَّنْ يسوقُه الزمَنُ إلى نواديهم

أنْ يسكُتَ عن جهلهم، ويتركَهم وشأنَهم؛ وإنما يُرضيهم منه أنْ يُزيِّنَ لهم سوءَ عملهم، أو يَرْمُقَهم بعينٍ مكحُولة بتبسُّمِ الاستحسان، وهو أَقَلُّ شيءٍ يستحقُّ به في نَظَرِهم لَقَبَ: كيِّس ظريف!

والمدَاهنة[1]: خُلُقٌ قَذرٌ لا ينحطُّ فيه إلا مَن خَفَّ في العلمِ وزنُهُ، أو مَنْ نشأ نشأةَ صَغارٍ ومَهانةٍ.

وهذا تاريخُ العُلَماء الراسخين؛ ناطقٌ بما كان لهم من الإقدامِ على وَعْظ الأُمراء، والإنكار عليهم[2] إذا أساءوا التصرُّفَ أو أهملوا!!

---

(١) انظر الفرق بين (المداراة)و(المداهنة)؛ في «روضة العقلاء» (٧٠-٧٣) لابن حبان.

(٢) ولكنْ بالتي هي أحسن للتي هي أقوم؛ والأدب في ذلك أن يكون سرًا؛ لما صح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من أراد أن ينصح لذي سلطان، فلا يُبْده علانية، ولكن يأخذ بيده، فيخلو به،فإن قبل منه فذلك، وإلا كان قد أدى الذي عليه».

رواه أحمد (٣/ ٤٠٣ - ٤٠٤)، والحاكم (٣/ ٢٩٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٩٦) و(١٠٩٧) و(١٠٩٨) بسند جيد إن شاء الله.

وفي «المسند» (٤/ ٣٨٢-٣٨٣) عن عبد الله بن أبي أوفى قولُه: «إن كان السلطان يسمع منك فأته في بيته، فأخبره بما تعلم، فإن قبل منك؛ وإلا فدعه، فإنك لست بأعلم منه». وسنده حسن؛ كما قال شيخنا الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ٥٢٣).

قال عزُّ الدين بن عبد السلام للملك نجم الدين أيُّوب في مجلسٍ حافلٍ برجال الدولة: يا أيُّوبُ! ما حُجَّتُك عند الله إذا قال لك: ألم أُبوِّىءْ لك مُلْكَ مصرَ ثم تبيحَ الخمورَ؟! فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم، الحانةُ الفُلانيّةُ يُباع فيها الخمورُ وغيرُها من المنكَرات، وأنت تتقلَّبُ في نعمةِ هذه المملكة، فقال: هذا أنا ما عملْتُه؛ هذا مِنْ زمانِ أبي؛ فقال: أنت مِنَ الذين يقولونَ: ﴿إنَّا وجدْنا آباءَنا على أُمَّة﴾[1]!؟ فرسَم الملكُ بإبطال تلك الحانة[2].

نعلمُ أنَّ السلطةَ السياسيَّةَ تنتقل أطواراً، وأنَّ موقفَ العلماء أَمام الأُمراء يختلفُ على قَدْرِ ما يكونُ للعالم من مكانةٍ في قُلوب الأُمَّة، وعلى قَدْر ما يكُون للأمير من حماقة أو أناة.

واختلافُ السياسة أطواراً، أو اختلافُ مواقف العُلَماء أمام الأُمراء: إنَّما يقتضي أن يكونَ لكلِّ طورٍ

(١) سورة الزخرف: ٢٢.

(٢) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢١٢) للسبكي.

سياسيٍّ -أو لموقفِ كلِّ عالم- أسلوبٌ في الدعـوةُ يطابِقُ مُقتضى الحال[1].

أمّا أصلُ دعوة الأُمراء إلى حَقّ أو صالحٍ؛ ففريضـةٌ قـائمةٌ، وعـزُّ الدين بن عبـد السـلام أَوْ أَحَدُ عُلمـاء هذا العصر[2] -في احتمالِ أمانتِها وَوُجوبِ تحرير الذمَّة بأدائها- على سواءٍ.

٢- ضعفُ الجأشِ وقلَّةُ الصبرِ على المكاره؛ وهو خُلُقٌ يقطعُ لسانَ صاحبِه عن قول الحق؛ مخافةَ أَنْ لا يرتضيَ بعضُ الناس قولَه، فيُضْمِروا له البغضاءَ ويَسُومُوه أذىً أو تهكُّماً:

وكم سُقْتُ في آثارِهم مِنْ نصيحة

وقد يستفيدُ البَغْضَةَ المُتَنَصِّحُ

---

(١) وحال الأمة اليوم - مع جُلّ حكامها - ينادي بالموقف الواجب وجوده بقضّه وقضيضه؛ دعوةً خالصةً إلى الشرعِ ، وربطاً للأُمة بعلمائها وأكابرِها

ومع ذلك: يكابر أناس، ويناطحون بقرون من ورق، غافلين عن (واقعهم)، متغافلين عن (وهائهم)!!.

(٢) تأمل قيد (العلماء)، وقارن بما يمارسه من هو دونهم!!

وقد تعرضَ الكتابُ العزيزُ لخَصْلة الاستهزاء بالمُرْشدين، ونبَّه على أنّها عادةٌ مألوفةٌ، وأذىً يعترضُ في طريق كُلِّ مُنادٍ بالإصلاح، قال تعالى: ﴿ولقدْ أرسَلْنا منْ قَبْلِكَ في شيَعِ الأوّلين. وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

وقد يَقُصُّ علينا من بَذائهم ومَكرِهِم ما يَصِحُّ أن يكونَ من حِكمة تسلية الدُّعاة، وتأكيد عَزْمِهم على مُواصَلَةِ الدعوة، وقلَّة الاكتراث بَما يُلاقونه من شَغَبٍ وإساءةٍ، فإذا لقيَ رُسُلُ الله عليهم السلامُ من سُفَهاءِ القوم أذىً كثيراً، فأَغْمَضُوا عنه وداسُوه بأقدامِهم؛ فلا يَسَعُ غيرَهم ممنّ يريد الخيرَ لأمَّته، إلا أن ينصحَ لهم، ويفتحَ في طُرُق الهِداية أبصارَهم، ولا يُبالِيَ بمن يُنْغِضُ[2] إليه رأسَه ساخِراً، أو يُطْلِقُ فيه لسانَه لامِزاً.

٣- أَنَّ في الرؤساء مَنْ تَجْمَحُ بهم أهواؤُهُم عن ناحية العَدْلِ، ولا يرقُبون لفضيلةِ العفافِ عَهْداً، فيكيدون لكلِّ

---

(١) سورة الحجر: ١٠.

(٢) يحرِّك.

مَنْ شأنُهُ الدعوُة والإصلاحُ؛ لكيلا يتعرَّضَ لسيرتهم، أو يتطاولَ إلى نقد سياستهم[1].

هذا الضَّرْبُ من الاستبداد: يُلْقي في النفوسِ الضعيفةِ حَذَراً بالغاً، ويقْلِبُ العارفين بطُرُقِ الإصلاحِ إلى حال الغافلين عنه، فتراهم ينظُرون إلى الفسادِ يتقلَّبُ في البلاد كأنّهم لا يُبصرونَ.

قد يُعْذَر أمثالُ هؤلاء في عَدَم التعرُّضِ لأحوال الرؤساء المُستبدِّين، حيث اعتقدوا أنَّ خوضَهم فيها يسوقُهم إلى عُقوبةٍ لا طاقَة لهم بها.

ولا عُذْرَ لأحد في الصمت عن التذكير جُملةً، إلا إذا بَلَغَ هؤلاء المستبدُّون أنْ يَضَعُوا عقوبتَهم على ظَهْر كُلِّ من ينهى عن مُنكر، ولو لم يكُن له صِلةٌ بسياستِهم الجائرة[2]، ولعلّك لا تجدُ في أَنْباء الدول مَنْ يتخبَّطه شيطانُ الاستبداد، حتى يَسْطُوَ على كلِّ مِنْ ينطقُ بالحكمة

(١) وهم كثير كثير!! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير..

(٢) وهم موجودون! ولا يشعرون أنهم بصنائعهم هذه يُعِنيون على إفساد الدنيا والدين!!

والموعظة. وواجبُ العُلماء أن يقوموا بالإصلاح والإرشادِ في دائرة الإِمْكان[1].

٤- أنْ يَغْلُوَ العالِمُ في الورع، فيأبى الذهابَ إلى حيثُ يأمرُ بمعروفٍ، أو ينهى عن منكرٍ، حَذَراً من أن يغشى ناديَ منكرٍ، أو يختلطَ بصاحبِ ضلالةٍ.

حكى القاضي عِيَاضٌ في كتاب «المدارك»[2] أنَّ عضُدَ الدولة (فَنّاخَسْرُو الدَّيلميّ)؛ بعث إلى أبي بكر بن مُجاهدٍ والقاضي ابن الطَّيِّب؛ ليحضُرا مجلسَه لمناظرةِ المعتزلة، فلمّا وصل كتابُه إليهما؛ قال الشيخُ ابن مُجاهدٍ وبعضُ أصحابِه: هؤلاء قومٌ فَسَقَةٌ؛ لا يَحِلُّ لنا أن نطأَ بساطَهم، وليس غَرَضُ الملكِ من هذا إلا أن يقال: إنَّ مجلسَه يشتملُ على أصحاب المحابر كلِّهم، ولو كان مُخلصاً لنهضْتُ! قال القاضي ابنُ الطَّيِّب: فقلتُ لهم: كذا قال

---

(١) كما قيل:

إذ لم تستَطِعِ شيئاً فدعْهُ
وجاوِزْهُ إلى ما تستطيعُ.

(٢) (٢/ ٥٨٥ - ٥٩١) مطوّلاً.

وانظر «أزهار الرياض» (٣/ ٧٩) للمقَّري

المحاسبيُّ وفُلانٌ ومَنْ عاصرهم: إنّ المأمونَ فاسقٌ لا يُحْضَر مجلسُه؛ حتى ساق ابنَ حنبل إلى طَرَسُوس، وجرى عليه ما عُرِفَ، ولو ناظروه لَكَفُّوهُ عن هذا الأمر، وتبيَّن له ما هُم عليه بالحُجَّة؛ وأنت أيضاً أيها الشيخُ! سَلَكْتَ سبيلَهم، حتى يجريَ على الفُقهاءِ ما جرى على أحمدَ، ويقولوا بخَلقْ القُرآنِ ونفي الرؤية، وها أنا خارجٌ إن لم تخرُج؛ فقال ابن مُجاهدٍ: إذا شرَحَ اللهُ صدرَك لهذا فاخْرُجْ.

٥- **أن يقومَ الرجلُ بالإرشادِ، فلا يجدَ مِمَّنْ فيهم الكفايةُ مساعداً**، وربَّما أدخلُوا في قلبهِ اليأسَ، وسدُّوا بابَ الأملِ في وجهِهِ، مُتَّكِئينَ على دعوى فساد الزمان، وعَدَمِ إفادة النصيحة عند غَلَبَة الفساد، وهو الخاطرُ الذي يَسُرُّ أعداءَ الأدب أن يستقرَّ في نفسِ كُلِّ مؤمنٍ، فيجدوا مِنْ خُمولِ أهل العلم وكَسَلهم: ما ينشَطُ بهم إلى أن يُنادوا للخروجِ على الفضيلةِ وهم آمِنون !!

٦- **أن يجدَ العالمُ في سيرته سيّئةً أو سيئاتٍ، فتُلقى في نفسهِ الذِّلَّةُ والرَّهْبةُ**، ويتركَ الإرشادَ؛ حَذَراً من أن يَلْمِزَهُ

بها الناسُ حين يقومُ بينهم مقامَ الواعظِ الأمين.

والعادةُ: أنَّ مَنْ يخرجُ للناس في ثوب مُرشد، وقد عَلَقتْ بسيرتِهِ وَصْمَةٌ؛ لم يلبثوا أن يُذَكِّروه بها[1] ويُنْشِدوه:

يا أيُّها الرجلُ المعلِّمُ غيرَه

هلا لنفسِك كان ذا التعليمُ

فينبغي للعالم أن يكونَ ذا نفسٍ زكيَّة، وساحة نقيَّة؛ حتى لا يكونَ الخَلَلُ في سيرته كالشجا يقفُ له في لَهَاته، ويمنعَه من هداية المُسْرفين، وعلى أيِّ حالٍ كان: لا يليقُ به الإحجامُ عَنِ الإرشاد؛ فإنَّ ما يعرفُه له الناس مِنْ زلل: قد يصرفُ عنه وجوهَ العامَّة، ويَقْعُدُ بهم عن سماع موعظته، أمّا الخاصَّةُ؛ فربّما انتفعوا بِدَعْوتِهِ الموصولة بالحجَّةِ، أو بيانِ الحكمة.

٧- العداوةُ تنشَبُ بين الرجلِ والفئة الجاهلة، فتُمْسكُ لسانَه عن نصيحتِهم وإنذارِهم؛ ليتمادَوا في ضلالٍ،

---

(١) وهذا من سوء أخلاقهم، ومن دوافع رفضهم للحق، وإبائهم الانصياع له!!

ويتساقطوا على عملٍ يهوي بهم في خَسَارٍ، وقد خادَعَتْ هذا البائسَ نفسُه، فَرَمَتْ به في غِشٍّ، وساقَتْهُ إلى التهاونِ بواجبِ النصيحةِ.

٨- الشَّفَقَةُ تَفيضُ في فؤاد الرجلِ؟! لعلها (تطغى) على حُبِّهِ للإصلاح، فتردُّهُ عن أمرِ الشخصِ بصالحٍ فيه كُلْفةٌ.

والشَّفَقَةُ: كسائرِ الفضائلِ التي يَخْرُجُ بها الإفراطُ إلى ما لا يُسمَّى فضيلةً! وقد نهى القرآنُ عن مثلِ هذه الشفقة الطاغية؛ فقال تعالى: ﴿الزانيةُ والزاني فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدَةٍ ولا تأخُذْكُمْ بهما رَأْفةٌ في دينِ الله إنْ كُنْتُمْ تُؤمنون باللهِ واليوم الآخرِ﴾[1].

فالحدودُ والنُّظُمُ وُضِعت لحفظ المصالح واستيفاء الحُقوق، فيجبُ أنْ لا يكونَ للرأفةِ الداعيةِ إلى الإخْلال بشيء من إقامتها: أثرٌ يُرى[2].

---

(١) سورة النور: ٢.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلام مطول في هذه (الرأفة) و(الشفقة)؛ فانظر «دقائق التقسير» (٢/ ٣٨٥) للدكتور محمد السيد الجليند.

(٢) هذا ضابط حسن لهذا (الرأفة).

وأخرج ابنُ جرير في «تاريخه»[1] عن سالم: أنَّ عمرَ ابنَ الخطابِ كان إذا صَعِدَ المنبرَ فنهى الناسَ عن شيء؛ جمع أهلَه فقال: إنّي نهيتُ الناسَ عن كذا وكذا، وإنّ الناسَ ينظُرون إليكم نظرَ الطَّيرِ[2]، وأُقسمُ باللهِ لا أجدُ أحداً منكم فعلَه إلا أضعفتُ عليه العقَوبة؛ لمكانه منِّي!

٩- أن يكون المستحِقُّ لأنْ يُوجِّهَ إليه الداعي أمرَه ونهيَه: مِثْلَ أبٍ مطاعٍ، أو معلِّمٍ محترمٍ، فيبلُغَ به الحياءُ منه والاحترامُ لمقامه: أن يسكُتَ عن دعوتِه المثمرَة، بنسبتِه إلى جهالةٍ أو خطيئةٍ.

وفيما قَصَّه اللهُ علينا من موعظةِ إبراهيَم عليه السلام لآزرَ[3] وتسميتِه أباً: ما يُرشِدُنا إلى أنَّ الأُبوَّةَ لا تمنعُ مِنَ الأمر بمعروفٍ، أو النهيِ عن منكَرٍ، ولكنَّ الأبَ يستحقُّ منْ أدبِ الخطابِ، ولُطف الموعظة أكثرَ ممَّا يستحقُّ غيرُه.

---

(١) « تاريخ الأُمم والملوك » (٤/٢٠٧).

(٢) يعني: إلى اللحم.

(٣) كما في سورة الأنعام آية: ٧٤.

وفي قصَّة موسى والخَضِر [1] عليهما السلامُ، واتِّباعِ الأولِ للثاني بِصِفَةِ متعلِّم، ثمَّ إنكارِه عليه خَرْقَ السفينة وقتلَ الغلامِ وإقامة الجدار: عِبْرةٌ للمتعلِّمين والمعلِّمين؛ فللمتعلّمينَ حقُّ الإنكار، وعلى المعلِّمين أنْ لا يستنكِفُوا[2].

١٠- عِلّةٌ نادرةٌ؛ ولا نَدْري هل بقيَ لها من أثر إلى هذا اليوم؟! وهي: **أنّه كان في الناسِ مَنْ يبدو له أَن يتركَ بعضَ أَعمال الخير؛ حَذَراً من أن يُخالطَ قصدَهُ الرياءُ والتطلُّعُ للسمعة، فيقلُصَ[3] نورُ إخلاصِه، ويفوتَهُ ثوابُ الله في الآخرة.**

وتركُ الدعوةِ بمثل هذا الوَسْواسِ: وَرَعٌ خادعٌ[4]، وما على العارفِ بالإصلاحِ إلا أَن يجاهدَ نفسَهُ، ويأخذَها بأدب الإخلاص ما استطاع.

---

(١) كما في آيات سورة الكهف: ٦٠ - ٨٢.

(٢) وهذا من الآداب العلميّةِ المفقودةِ اليومَ في دنيا الناس إلا ما رحم ربّي

(٣) أي: ينقص ويذهب.

(٤) قال الفضيل بن عِيَاض: «تركُ العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك».

ذكرهُ صاحب «الرسالة القشيرية» (ص ٩). =

ومخافةُ الرياء تجاه فائدةِ الدعوةِ إلى صالحٍ: لاغيةٌ.

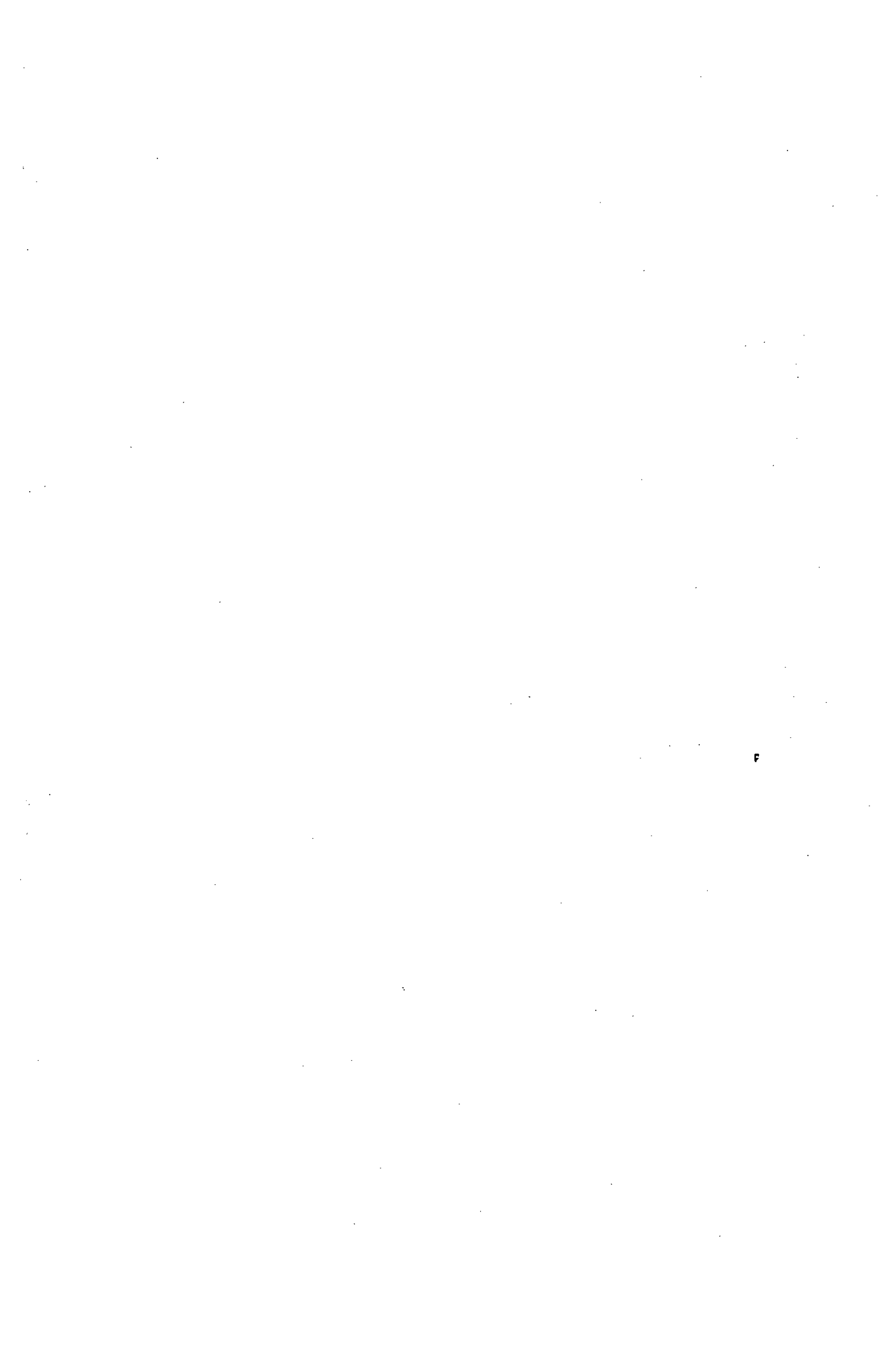
١١- علَّةٌ نَشَأَتْ في هذه الأَيام؛ وهي: أنَّ الذين في قلوبِهم زيغٌ قد وجدوا من القوة المادية، وسُلطان الدول الأجنبيّة: ما يُزيِّنُ لهم نَشْرَ دعاياتِهم الهازِلة، فصادَفَتْ من بعض الأَحداث أفئدةً هواءً، فباضَتْ فيها وفرَّخَتْ، وأخَذَ الإلحادُ يَدْرُجُ على ألسنتِهم، وصَفَاقةُ المُجَّانِ بارزةٌ على وجوهِهِم.

وقد ينظُرُ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذه الفتنةَ؛ لم يسبقْ لها مثيلٌ فيما سَلَف، فيهابُ سطوتَها، ويحسَبُها ناراً لا يمكن إطفاؤها، فيذوبُ أمامَها، ويولِّيها ظهرَه يائساً[1]!

وما هذه الفتنةُ إلا جولةُ باطلٍ؛ يتوكَّأُ على قوة مادية، فمتى لقيَ في سبيله الحقائقَ تكتنفُها البيِّناتُ، ذهبَ جُفَاءً، ولا يبقى له أثرٌ إلا في نفوسٍ يذهبُ المنطقُ بين جهالَتِها وشَهَواتِها ضائعاً!!

= وانظر كتابَ«مقاصد المكلَّفين فيما يُتعبَّدُ به لرب العالمين» (ص٤٦٢-٤٦٤ -تحت عنوان: مزلق خطر) - للدكتور عمر الأشقر.

(١) وليس الأمر -شرعاً- كذلك، بل لا بد من الدعوة، والمثابرة فيها، والاستمرارية لها؛ والله عز وجل يقول: ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد: ١١].



الفصل الثاني عشر:

آثارُ السكوتِ عن الدعوة

ينزوي العارِفُون بوجوهِ الإصلاح، فيرفعُ البغْيُ لواءَهُ، ويبقى إخوانُ الفسادِ يترددَّون على نوادي المُنكَرَاتِ، والبغيُ يضربُ على الأُمةِ الذلَّةَ والمسكنةَ، والانهماكُ في المنكَرَات يُميت خِصالَ الرجولةِ، مِنْ نحوِ الشجاعةِ، وشدَّة البأسِ، والبذل في سبيل الخير.

وإذا تفشَّى وباءُ البَغْيِ والفساد، تداعَت الأخلاقُ الفاضلةُ إلى سقوطٍ، ونَضَبَ ماءُ الحياءِ منَ الوجوه، ووَهَنتْ رابطةُ الاتِّحادِ في القلوب، وتضاءَلتِ الهِمَمُ عَنْ معالي الأُمور، وقَلَّتِ الرغبةُ في الآدابِ والعلومِ.

وما عاقبةُ الأُمة المُصابة بِالذُّلِّ والإِحْجام، والجهلِ والتفرُّق، وقلّةِ الإِنْفاق في سبيل البرِّ إلا الدَّمارُ، قال تعالى: ﴿وإذا أَرَدْنا أن نُهلكَ قريةً أَمَرْنا مُتْرَفيها ففسَقُوا فيها فَحَقَّ عليها القولُ فدمَّرْناها تَدمْيراً﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: ١٦.

ومنْ أكبرِ الدَّمارِ الذي تُبتلى به الأُممُ الفاسقةُ: أنْ تقَعَ ناصيتُها في قبضةِ خصمها العنيدِ، وفي التنزيلِ الحكيمِ ما يُفيدُ أنَّ لمرتكبي فاحشة الظُّلمِ عاقبةً وبيلةً هي وقُوعُهم تحتَ سيطرة الظالمينَ، قالَ تعالىَ: ﴿وكذلك نُولِّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكْسبُون﴾[1].

ولا يحسَبِ الذين ينقطعُونَ عن إرشادِ الضالِّين وَوَعْظِ المسُرفين: أنَّ إقبالَهم على شأنِهم، واقتصارَهم في العملِ الصالحِ على أنفُسِهم: يجعلُهم في مَنْجَاةٍ من سوء المُنْقَلبِ؛ الذي ينقلبُ إليه الفاسقون!

والذي جَرَتْ به سُنّةُ اللهِ في الأُمم: أنَّ وباء الظُّلمِ والفسوقِ؛ إذا ضُرب في أرضٍ، وظهر في أكثرِ نواحيها: لا تنزلُ عقوبتُه بديار الظالمين، أو الفاسقين خاصَّةً، بل تتعدّاها إلى ما حولَها، وتَرْمي بِشَرَرٍ يلفَحُ وجوهَ جيرانهم؛ الذين تخلَّوا عن نصيحتهم، ولم يأخُذوا على أيديهم، قال تعالى: ﴿واتَّقُوا فتنةً لا تُصيبَنَّ الَّذين ظَلَموا منكم خاصَّةً﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٩.

(٢) سورة الأنفال: ٢٥.

ومن الفِتَنِ ما ينزلُ على القرى الظالمة، ويأتي على المُؤمنين منهم، ولو لم يَلْبِسُوا إيمانَهم بترك النصيحةِ، وقاموا بالأمر والنهي جَهْدَهم.

فإنّك تجدُ فيما تطالعُهُ من أَنباء الأُممِ: أنَّ الأُمَّة التي يجوسُ خلالَها الظلمُ والفسادُ: لا تَلْبَثُ أن تسقُطَ من شامخِ عزِّها؛ فإمّا أن تقبضَ عليها يدٌ أَجنبيةٌ، وإمَّا أن تحلَّ بها قارعةٌ سماويةٌ، وما كان من نوع هاتين العقوبتين: يتناولُ الأفرادَ الذين نَصَحُوا لقومهم فلم يقبلُوا، كما يتناولُ الصِّبيانَ، ومَنْ لا قُدرةَ له على الجهرِ بالنصيحةِ.

رُوي في «الصحيح»[1] عن زينبَ بنتِ جَحْشٍ، قالت: قلتُ: يارسولَ الله! أنهلِكُ وفينا الصَّالِحُونَ؟ قال: «نعم؛ إذا كثُرَ الخَبَثُ».

وعن ابن عُمر: أنه سمع أباه يقولُ: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أنزل اللهُ عذاباً؛ أصاب العذابُ مَنْ كان فيهم، ثم بُعِثوا على أعمالِهم»[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٠) عن أم حبيبة.

(٢) رواه البخاري (٦٦٩١)، ومسلم (٢٨٧٩).

ومنَ البَلِيَّة في سُكوتِ العُلَماء: أنَّ العامَّةَ يتّخذُونه حُجَّةً على إباحة الأشياء، أوِ استحسانها، فإذا نهيْتَهُمْ عن بدعة سيِّئة، وسُقْتَ إليهم الدليلَ على قُبْحها، ومُخالَفتها لما شَرَعَ اللهُ؛ كان جوابُهُم: أنّهم فعلوها بمرأىً أو مَسْمَعٍ مِنَ العالِمِ فُلانٍ، ولم يعترض فعلَهم بإنكار[1]!!

ومِنْ أَثَر التهاون بالإرشاد: أن يتمادى المُفسدون في لَهْوِهِمْ، ولا يَقِفوا في اتِّباع شهواتِهم عند غايةٍ، فتقعَ أعيُنُ الناسِ على هذه المناكرِ كثيراً، فتألَفَها قلوبُهم؛ حتّى لا يكادُوا يشعُرون بقُبْحِ مَنْظَرِها، أو يتفكَّروا في سُوءِ عاقبتِها.

ومِنْ أَثَر هذا: أنْ يُقبِلَ عليهمُ الحقُّ بنوره الساطعِ، وَوَجْهه الجميل؛ فتجْفَلَ منه طِباعُهم، وتجفُوَهُ أذواقُهم، لأَوَّلِ ما يُشْرِفُ عليها.

ومِن أَثَر السكوتِ عن بَيَان الحقّ والدعوةِ إليه: أنْ نبتَتْ هذه الفئةُ؛ التي تُحاولُ القضاءَ على الآدابِ الفاضلةِ، والنُّظُم الحُكْميّة، وتَهْذيَ باسم «الجديد»

---

(١) فالواجبُ على أهل العلم أن يعرفوا حقَّ القُدوةِ من أنفسهم.

و«القديم»! و«أنصار الجديد» و«أنصار القديم»[١]!، وبَلَغَتْ بإخلاصِها للقوّة - التي يُعَدُّ الإخلاصُ لها جريمةً - أنْ أخَذَتْ تدفعُ بعضَ أذنابِها إلى إيذاء الأُمَّة؛ بتضليل أبنائها والطَّعْنِ في شريعتِها[٢]!!

يفعلون هذا؛ وهم يعلَمُون ما فيه من تمزيق رابطة الأُلفة وصَدْعِ بناء الوحدةِ، يفعلون هذا؛ وهم يعلَمُون أَنَّهم سَيُشاغبون أفكاراً وأقلاماً تعملُ على إصلاحِ شؤون الأُمَّة، وتُجاهِدُ في سبيل خلاصِها، كأنّهم يبتغون منها أنْ

(١) وهذا كلُّه من شنائع (العصرانيِّين) ، (والعقلانيِّين) وهي حبائلُ ومصايدُ يُصاد بهاَ السُّذَّج والجاهلون !!

(٢) وبعض ذلك بثوب (الحرص) على الدين، و(الغيرة) على الشرع! و(تنقيح) السنة!!

ولكن ذلك كله سرعان ما يتكشّفُ، وتظهر حقائقه!

ورحم الله من قال: «يتكاتم أهل الأهواء كل شيء إلا التآلف والصحبة!»

رواه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٥١٠).

وروى (برقم: ٤٢٠) عن الأوزاعي قوله: «من ستر عنا بدعته لم تخف علينا أُلفته»!

فهم يجالسون المخالفين للدين! ويوادُّون المضادِّين للشريعة! ويهدمون السنة . . . لكن بأسوب: (حدثنا) و (أخبرنا)!!

تنصرفَ عن هذه الغايةِ السامية، وتقضيَ الزمنَ في جِدالِهم، وكَشْفِ اللِّثامِ عن بناتِ جَهْلِهم وموقعِ أهوائهم، وهذا ما وقع[1]؛ وإلى اللهِ المُشتكى!

وإذا كان ضَرَرُ هذه الفئة على الحياة السياسيّة يُساوي ضررَها على الحياة الأدبيّة؛ فإنَّ تقويمَها، وحمايةَ الشعوب مِنْ وبائها: لا يجبُ على رجال الدِّينِ خاصَّةً، بل هو حقٌّ على كُلِّ مَنْ يغارُ على الأَدبِ، والنظامِ، وإطلاقِ الشعوب مِنْ قيودِ الاستعبادِ.

□□□□□

---

(١) وهذا ما وقع!!

الفصلُ الثالثَ عشرَ:

ما يُدعى إلى إصلاحِه

يجري الإنسانُ في أعماله؛ على وَفْق ما يريدُه مِن أوضاعِها وهيئاتها، وللإرادةِ صِلَةٌ بالعقائِد تصفو لصفائها، وتَخْبُثُ لخُبْثِها.

فالإيمانُ بيوم البعث والجزاء: تنشأُ عنه إرادةُ فعل الخير؛ كالانتصارِ للمظلوم، أو إيثارِ ذي الحاجة، دونَ انتظِار جزاءٍ أو شُكور في هذه الحياة.

والجحودُ بعلام الغُيوب: إنّما يكونُ مثارَ الإراداتِ الذميمة، ويُزيِّنُ لصاحبهِ أنْ يعقِد نيَّتَهُ على ارتكاب الفحشاءِ والمنكر، إنْ لم يكن عَلَنًا؛ فمِنْ وراء ستارٍ.

فإذا زاغتِ العقائدُ؛ كانت أعمالُ صاحبها بمنزلةِ مَنْ يرمي عن قوسٍ مُعْوَجَّةٍ، أو يضربُ برُمحٍ غيرِ مستقيمٍ:

وإذا كان في الأنابيب حَيْفٌ
وقع الطَّيشُ في صدور الصِّعادِ

إذاً؛ يجبُ على الداعي أن يُوَجِّهَ عَنايتَه إلى مَحْوِ المزاعمِ الباطلةِ، ورَبْطِ قُلوبِ الناس بالاعتقادِ الصحيحِ.

وللطِّباعِ الراسخة أثرٌ في المسابقة إلى الأعمال، أو التباطؤِ عنها، كسجيَّة الكَرَم؛ تنهضُ بالأُمة إلى إنشاء الجمعيَّات العلميّة[1]، وتبسطُ أيديَهم بالبَذْلِ في سبيلِ المشروعاتِ الخيريّة.

ومّما يُنَبِّهُكَ على أنَّ للأَخلاقِ سُلطاناً على الإرادة: أنك ترى المسلمَ يعتقدُ بفريضة الزكاة، ويقرأُ ما ينالُه في تركها من العذاب، ثم لا يكونُ منه إلا أن يقبضَ يدَه عن قضاءِ واجبِها؛ مُطاوَعةً لداعية الشُّحِّ، وإيثاراً للَّذَّةِ العاجلةِ على السعادة الباقيةِ!

وإذا كانت السجايا مُيسِّرةً للأَعمال، ومُساعِدةً على صدورِها بسهولةٍ؛ دخل في وظيفةِ المُصلِحِ: الدعوةُ إلى نَبْذِ الأَخلاقِ السافلةِ، والتحلِّي بالأَخلاقِ الفاضلةِ.

وإصلاحُ الأَخلاقِ بالمقالات العامَّة نافعٌ، وأقربُ

---

(١) (العلميّة) المبنيَّة على التعاون الشرعي، والقائمة على الأخوة الصحيحة.. وليست المؤسَّسة على الحزبية، والمرتكزة على أواصر العصبية!!

الوسائل في تربيتها: أن يُرَكِّبَها المُصْلِحُ في طبيعة كُلٍّ شخص بعينه، فكثيرٌ من الناس يتعلّمُ الأخلاقَ الحميدةَ، ولا يشعُرُ بأنّهُ عارٍ منْ حلْيتها، وقد يُدْركُ حقيقةَ الخُلُقِ الحسنِ وحقيقةَ ضدِّه نظَرياً، وتتشابَهُ عليه صورُهُما في الواقعِ، فلا يكادُ يُفرّقُ بينهما:

وفي الناسِ مَنْ عدَّ التواضُعَ ذِلَّةً

وعدَّ اعتزازَ النفسِ مِن جَهْله كِبْرا

ومن هنا: كانت تربيةُ الأبوين الصالحين أرسخَ أثراً من الأَدَبِ الذي يتلقّاه الناشئُ منَ الدرسِ أو الكتابِ.

وكان المصطفى صلواتُ الله عليه، يُرْشدُ إلى مكارم الأخلاق بالحكمة العامة، ويتولّى تربيةَ الأفراد على وَجْه خاصٍّ، فكثيراً ما نرى في الأحاديث الواردة في الحَثِّ على الخُلُق الجميل ما يُصْرَفُ الخطابُ به إلى شَخص بعينه، كقوله عليه السلام لِمُعاذ بن جَبَل: «أحْسِن خُلُقَك للناس»[1]

---

(١) هذا الحديث هو أحد الأحاديث الأربعة التي لا توجد في «الموطأ» مسندةً، كما قال ابن الصلاح في رسالة له في هذه «الأحاديث» (ص٣)

وقد رواه مالك في «الموطأ» (رقم ١٦٢٧) بلاغاً! ورواه أبو مصعب الزهري في «الموطأ» (١٨٨١)، عن مالك، فذكر شيخه يحيى بن سعيد.

وكذا رواه عن مالك: القَعْنَبِيُّ ؛ كما رواه ابن سعد في«الطبقات» (٣/ ٥٨٥)

ورواه عن مالك هكذا -أيضًا-: سعيد بن أبي مريم؛ عند البيهقي في=

وقوله لجارية بن قُدامة: «لا تغضَبْ»[1].

ثم إنَّ العملَ لا يكونُ حَسَناً في نفسه، إلا أن يسيرَ به صاحبُه في سُنّة الله، ويقتديَ فيه علَى آثار حكمته البالغة، فكان من شَرْط المُصلِح: درسُ كتابِ الله وسيرةَ رسوله الأعظمِ؛ ليكونَ على بصيرةٍ من الأعمال، التي يَدْعُو النَاسَ إليها.

=«شعب الإيمان» (٧٦٦٦).

وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٠٠): «هذا منقطع جداً، ولا يوجد مسنداً عن النبيّ ﷺ من حديث معاذ، ولا غيره بهذا اللفظ»

ثم نقل عن البزار قوله: «لا أحفظ في هذا مسنداً عن النبيّ ﷺ».

وقال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٢٦/ ١١٥): «وإنما المحفوظ أن رسول الله صلى عليه وسلم لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «يا معاذ! اتق الله وخالق الناس بخلق حسن..»

وقال ابن عبدالبر - أيضًا- في «تجريد التمهيد» (ص ٢٤٩): «معناه صحيح مسند».

قلت: والحديث المشار إليه حسن بطرقه؛ فانظر - لتخريجه - «جامع العلوم والحكم» (رقم ١٨) للحافظ ابن رجب، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٣٧٣) لشيخنا الألباني، و«شعب الإيمان» (١٤/ ١٧٧ - ١٨٢- الهند) للبيهقي، و«تنوير الحوالك» (٢/ ٩٤) للسيوطي.

(١) رواه البخاري (٦١١٦) عن أبي هريرة بإبهام اسم الرجل الموصى.

ورواه أحمد (٣/ ٤٨٤)و(٥/ ٣٤و٣٧٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٣٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠٩٣)و(٢٠٩٧)، وابن حبان (٥٦٨٩) عن جارية بن قدامة: أن رسول الله صلى عليه وسلم قال له... فذكر الحديث.

وانظر «الإصابة»، (١/ ٢١٩) و«أسد الغابة» (١/ ٣١٤).

وفي الباب عن عدة من الصحابة رضي الله عنهم.

وقد ترامى على مقامِ الدعوة نَفَرٌ لا يَدْرون ما الحكمةُ، ولا يُفَرِّقون بين السيرة القيِّمة، والسيرةِ الضالَّة، فلطَّخوا النفوسَ بأرجاسٍ تكادُ تُشْبِهُ هذه الأرجاسَ التي تسيلُ من أفواهِ طائفةٍ يُسَمُّون أنفسَهم المجدِّدين[1]!!

وحيثُ كانت الأُمة تفتقرُ في بقائها، وطيبِ حياتها، وحمايةِ ذَمارِها[2] إلى وسائلَ شتَّى، كالصنائعِ والعُلومِ النظريةِ - من نحو الطبيعيّات والرياضيّات -؛ أصبحت هذه الوسائلُ من قَبيلِ ما تجبُ الدعوةُ إليه، كما صرَّح بذلك أبو إسحاقَ الشاطبيُّ[3]، وغيرُه من الراسخين في العلم.

فإنَّ عظَمَ مصلحتها، والخَطَرَ الذي ينشأُ عن إهمالها: دليلٌ واضحٌ على أنها داخلةٌ فيما تأمرُنا حكمةُ الله بالمسابقةِ إليه، ولكنَّ الإسلامَ لم يفتحِ العُيونَ في كلِّ موضعٍ من

(١) وهم في الحقيقة (مبدِّدون) لا مجدِّدون!!
ومع ذلك!! يجدون من يتبَّعهم، ويُعلي شأنهم، ويشدّ أزرهم؛ بعلم منه أو بجهل!!

(٢) قال في «القاموس المحيط» (ص٥٠): «الذّمار: ما يلزمك حفظه وحمايته»

(٣) قارن بـ «الموافقات» (٢ / ٤٠٩) له.

مواضع إصلاحها، وما أعطى لتفاصيلها قواعدَ، كما فعل في قسمِ العبادات والمعاملات والجنايات، وإنّما أرشدَ إليها في كثيرٍ من أوامره، كقوله تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتمُ من قُوّة﴾[1]، ثم فوَّضَ استنباطَها واختيارَ ما هو الأصلحُ منها إلى الفطرِ السليمة، والعقولِ الراجحة؛ كما قال المُصطفى صلواتُ الله عليه في واقعة تأبيرِ النخْلِ: «أنتم أعلمُ بأُمور دنياكم»[2]؛ فإنَّ تمييز النافعِ والضارِّ في مثل هذا لا يكادُ يفوتُ مداركَهم، أو يَضيقُ عنه طوقُ عقولهم.

وقد يسبقُ غيرُ العارفين بأدبِ الشرعِ إلى بعض نُظُمٍ مدنيَّة أو فنون حيوية، فلا حَرَجَ على إخوانِ الإسلامِ أن يُحاكوا[3] غيرَ المسلمين، ويَعْمَلُوا على مثالهم فيما يَحْسُنُ في نظرهم[4] من هذه النُّظُم أو الفنون؛ فإنَّ إحجامَنا عن أَخْذ ما بأيدي المُخالفين منَ المعارفِ والنُّظُمِ المفيدة في هذه الحيَاة: يُفْضي بنا -كما قال أبو حامدِ الغَزَاليُّ- إلى أن نُحْرَمَ مِنْ كُلِّ صالحٍ سبقونا إليه.

---

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

(٢) رواه مسلم (٢٣٦) عن أنس وعائشة.

(٣) أي: يشابهوهم؛ ويتمثلوا طريقتهم؛ ولكن ضمن ضوابط الشريعة، وقواعد الملة.

(٤) المبنيِّ على أحكام الإسلام.

فمن واجبِ دُعاة الإصلاح: أن يُجيدوا البَحْثَ عن أحوالِ الأُمم الأُخرى؛ لعلّهم يقتبسُون منها ما يليقُ بحياةِ أمتهم.

كما يتعيّنُ عليهم أن يعرفوا أسبابَ ارتقاءِ الشعوبِ[١]، وعِلَلَ سُقوطِها؛ ليستعينُوا بها في ضَرْبِ الأمثلة، ويُؤيّدوا بها صوابَ ما تَهْديهم إليه البصيرةُ الخالصةُ.

وإذا استَبَان لنا أنَّ وجوهَ الإصلاحِ كثيرةٌ، وأنّ الدعَوة لا تنهضُ بالأُمّة إلا أن تأتيَ على كُلِّ علّة فتصفَ دواءها؛ أدركْنا شدَّة الحاجةِ إلى أن يكونَ المُتصدّي للدعوة جماعةً مُؤلَّفة[٢] من رجالٍ رسَخُوا في عُلومِ الشريعةِ، وألَمُّوا

(١) وأمة الاسلام أمة قائمة بذاتها، على أصلها؛ فليست هي بحاجة - في منهج الإصلاح - إلى هدي آخر بعيد عنها!لقوله ﷺ فيما رواه أحمد (٨٢٥) بسند حسن -: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله؛ سلّط الله عليكم ذلاً؛ لا ينزعه عنكم، حتى ترجعوا إلى دينكم».

وانظر رسالتي «التصفية والتربية وأثرهما في استئناف الحياة الإسلامية» (ص٧-١١).

(٢) على قاعدة التعاون الشرعي المبنيِّ على علم الكتاب والسنة، لا حزبيَّةً، ولا تشرذماً، ولا عصبية، ولا تفريقاً بين المؤمنين.

بالعلومِ العُمرانيةِ، والشؤونِ المدنيةِ، يجتمعونَ فيبحثونَ ويسيرون تحتَ رايةِ الإخلاص والإنصاف.

ولو تقارَبَ ما بين مَنْ دَرَسُوا علومَ الإسلامِ، وَمَن دَرَسُوا العلوم الأُخرى؛ من المؤمنين، وتعاونوا على الدعوةِ؛ لأقاموها على وَجْهِها المتين، وشادُوا مَن قُوّة إيمانِ الأُمّة، وشَرَف أخلاقِها، وسَعَة معارِفها، وشِدَّة عَزْمِها حُصوناً تتساقطُ دونها مكايدُ عدوِّها خاسئةً؛ ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُوا منكُم وَعَمِلُوا الصالحاتِ ليستخلفنَّهم في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قبلِهم وَلَيُمكِّننَّ لهم دينَهم الّذي ارتضى لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهم مِن بعْدِ خوفِهم أمناً﴾[٢].

□□□□□

[تم الكتاب بحمد الله الوهاب]

---

(٢) سورة النور: ٥٥.

☆ تم الفراغ من ضبط نص الكتاب، والتعليق عليه، وتخريج نصوصه: صبيحة يوم الاثنين، في الثامن من شهر صَفَر الخير؛ سنة سبع عشرة بعد الأربع مئة والألف هجرية، الموافق: ٢٤/٦/١٩٩٦م.

فالحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

الفهارس العلمية :



فهرس مراجع التحقيق

١- «الإبانة» / ابن بطة - السعودية.

٢- «الأحاديث الأربعة التي لا توجد في «الموطأ» مسندة»/ ابن الصلاح - المغرب.

٣- «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان»/ ابن بلبان - لبنان.

٤- «إحياء علوم الدين»/ الغزالي- مصر.

٥- «إرشاد الفحول»/ الشوكاني- مصر.

٦- «إرواء الغليل»/ العلامة الألباني- لبنان.

٧- «أزهار الرياض»/ المقَّريُّ- المغرب.

٨- «الاستذكار»/ ابن عبدالبّر- مصر.

٩- «أُسد الغابَة»/ ابن الأثير- مصر.

١٠- «الإصابة»/ ابن حجر- مصر.

١١- «الأعلام»/ الزِّرِكْلِيُّ- لبنان.

١٢- «الاقتصاد في الاعتقاد»/ الغزالي- لبنان.

١٣- «البحر المحيط»/ أبو حيان الأندلسي- مصر.

١٤- «تاج العروس»/ الزَّبيدي- مصر.

١٥- «تاريخ التشريع الإسلامي»/ محمد الخضري- مصر.

١٦- «تاريخ دمشق»/ ابن عساكر- مخطوط.
١٧- «تاريخ الفقه الإسلامي»/ محمد الخضري- مصر.
١٨- «تجريد التمهيد»/ ابن عبدالبر- مصر.
١٩- «ترتيب المدارك»/ القاضي عياض- لبنان.
٢٠- «التشريع والفقه في الإسلام»/ مناع القطان- لبنان.
٢١- «التصفية والتربية»/ علي حسن الحلبي- السعودية.
٢٢- «التفسير»/ ابن كثير- السعودية.
٢٣- «تفسير غريب القرآن»/ ابن قتيبة- مصر.
٢٤- «تقريب التهذيب»/ ابن حجر- السعودية.
٢٥- «التقرير في التكرير»/ محمد أبو الخير عابدين- سوريا.
٢٦- «التمهيد»/ ابن عبدالبر- المغرب.
٢٧- «تهذيب الإتقان»/ السيوطي، محمد عمر بازمول- السعودية.
٢٨- «تنوير الحوالك»/ السيوطي- مصر.
٢٩- «جامع البيان»/ الطبري- مصر.
٣٠- «الجامع الصحيح»/ البخاري- مصر.
٣١- «الجامع الصحيح»/ مسلم- مصر.
٣٢- «جامع العلوم والحكم»/ ابن رجب- مصر.

٣٣- «الحجج القوية»/ عبدالسلام بن برجس- السعودية.

٣٤- «الدرر الكامنة»/ ابن حجر- الهند.

٣٥- «الدر المنثور»/ السيوطي- مصر.

٣٦- «الدعوة إلى الله: بين التجمع الحزبي والتعاون ٣٧- الشرعي»/ علي حسن الحلبي - السعودية.

٣٧- «دقائق التفسير»/ د. محمد السيِّد الجلينيد- لبنان.

٣٨- «الرسالة القشيرية»/ القشيري- مصر.

٣٩- «روح المعاني»/ الآلوسي- مصر.

٤٠- «روضة العقلاء»/ ابن حبان- مصر.

٤١- «السلسلة الصحيحة»/ العلامة الألباني- السعودية.

٤٢- «السلسلة الضعيفة»/ العلامة الألباني- السعودية.

٤٣- «السنن»/ ابن ماجه- مصر.

٤٤- «السنن»/ أبو داود- مصر.

٤٥- «السنن»/ الترمذي- مصر.

٤٦- «السنن»/ الدارمي- سوريا.

٤٧- «السنن الصغرى»/ النسائي- مصر.

٤٨- «السنة»/ ابن أبي عاصم- لبنان.

٤٩- «سير أعلام النبلاء»/ الحافظ الذهبي- لبنان.

٥٠- «السيرة النبوية»/ ابن هشام- الأردن.

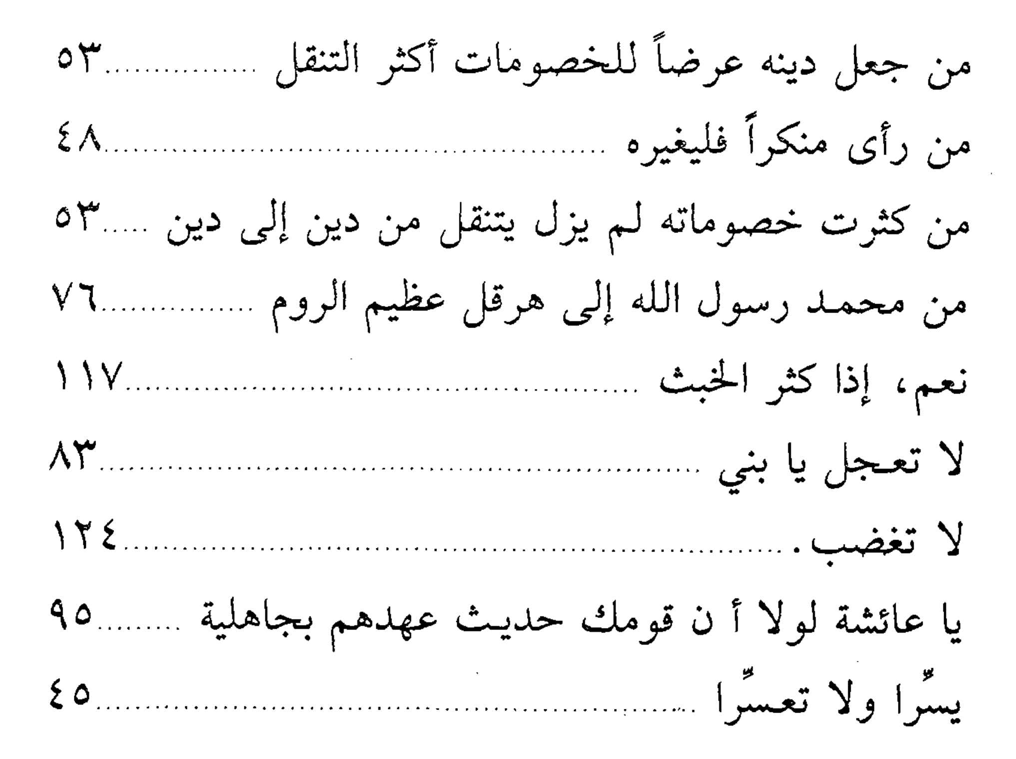
٥١- «سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز»/ ابن الجوزي- لبنان.
٥٢- «شرح المسند»/ أحمد شاكر- مصر.
٥٣- «الشريعة»/ الآجري- مصر.
٥٤- «شعب الإيمان»/ البيهقي- الهند.
٥٥- «الصحاح»/ الجوهري- لبنان.
٥٦- «الصحيح المسند من أسباب النزول»/ مقبل بن هادي الوادعي- مصر.
٥٧- «الضوء اللامع»/ السخاوي- مصر.
٥٨- «ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»/ علي حسن الحلبي- الأردن.
٥٩- «طبقات الشافعية الكبرى»/ السبكي- مصر.
٦٠- «الطبقات الكبرى»/ ابن سعد- لبنان.
٦١- «ظلال الجنة»/ العلاّمة الألباني- لبنان.
٦٢- «العقلانيون: أفراخ المعتزلة العصرانيون»/ علي حسن الحلبي- السعودية.
٦٣- «علم أصول البدع»/ علي حسن الحلبي- السعودية.
٦٤- «العين»/ الخليل بن أحمد الفراهيدي- لبنان.
٦٥- «غاية النهاية»/ ابن الجزري- مصر.

٦٦- «فتح الباري»/ ابن حجر- مصر.
٦٧- «الفهرست»/ الرصّاع- المغرب.
٦٨- «القاموس المحيط»/ الفيروزآبادي- لبنان.
٦٩- «كشف الأستار عن زوائد مسند البزّار»/ الهيثمي- لبنان.
٧٠- «كشف المتواري»/ علي حسن الحلبي- السعودية.
٧١- «لسان العرب- ترتيبه»/ ابن منظور- لبنان.
٧٢- «اللمع»/ الشيرازي- لبنان.
٧٣- «مجمع الزوائد»/ الهيثمي- مصر.
٧٤- «مجموع الفتاوي»/ ابن تيمية- السعودية.
٧٥- «المحرر الوجيز»/ ابن عطية- المغرب.
٧٦- «المدخل للتشريع الإسلامي»/ فاروق النبهان- المغرب.
٧٧- «المستدرك على معجم المؤلفين»/ عمر كحالة- لبنان.
٧٨- «المسند»/ أبو يعلى- السعودية.
٧٩- «المسند»/ أحمد بن حنبل- مصر.
٨٠- «المسند»/ الحميدي- الهند.
٨١- «المسند»/ الطيالسي- الهند.
٨٢- «مشكل الآثار»/ الطحاوي- لبنان.

٨٣- «المصنف»/ ابن أبي شيبة- الهند.
٨٤- «معارج الوصول»/ ابن تيمية- السعودية.
٨٥- «المعجم الكبير»/ الطبراني- العراق.
٨٦- «معجم المؤلفين»/ عمر رضا كحالة- لبنان.
٨٧- «معجم المطبوعات»/ سركيس- مصر.
٨٨- «المعلوم في العلاقة بين الحاكم والمحكوم»/ العلامة ابن باز- السعودية.
٨٩- «مفاتح الغيب»/ الفخر الرازي- مصر.
٩٠- «مقاصد المكلفين»/ د. عمر الأشقر- الكويت.
٩١- «مقام إبراهيم»/ العلامة المعلّمي اليماني- السعودية.
٩٢- «مقدمة في أصول التفسير»/ ابن تيمية- السعودية.
٩٣- «منهاج السنة»/ ابن تيمية- السعودية.
٩٤- «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج»/ النووي- مصر.
٩٥- «الموافقات»/ الشاطبي- مصر.
٩٦- «الموطأ»/ مالك بن أنس- مصر.
٩٧- «نواسخ القرآن»/ ابن الجوزي- السعودية.
٩٨- «نيل الابتهاج»/ التنبكتي- مصر.

فهرس الأحاديث[1]

(١) وهي تشمل المرفوع والموقوف والمقطوع؛ الصحيح والضعيف والموضوع.





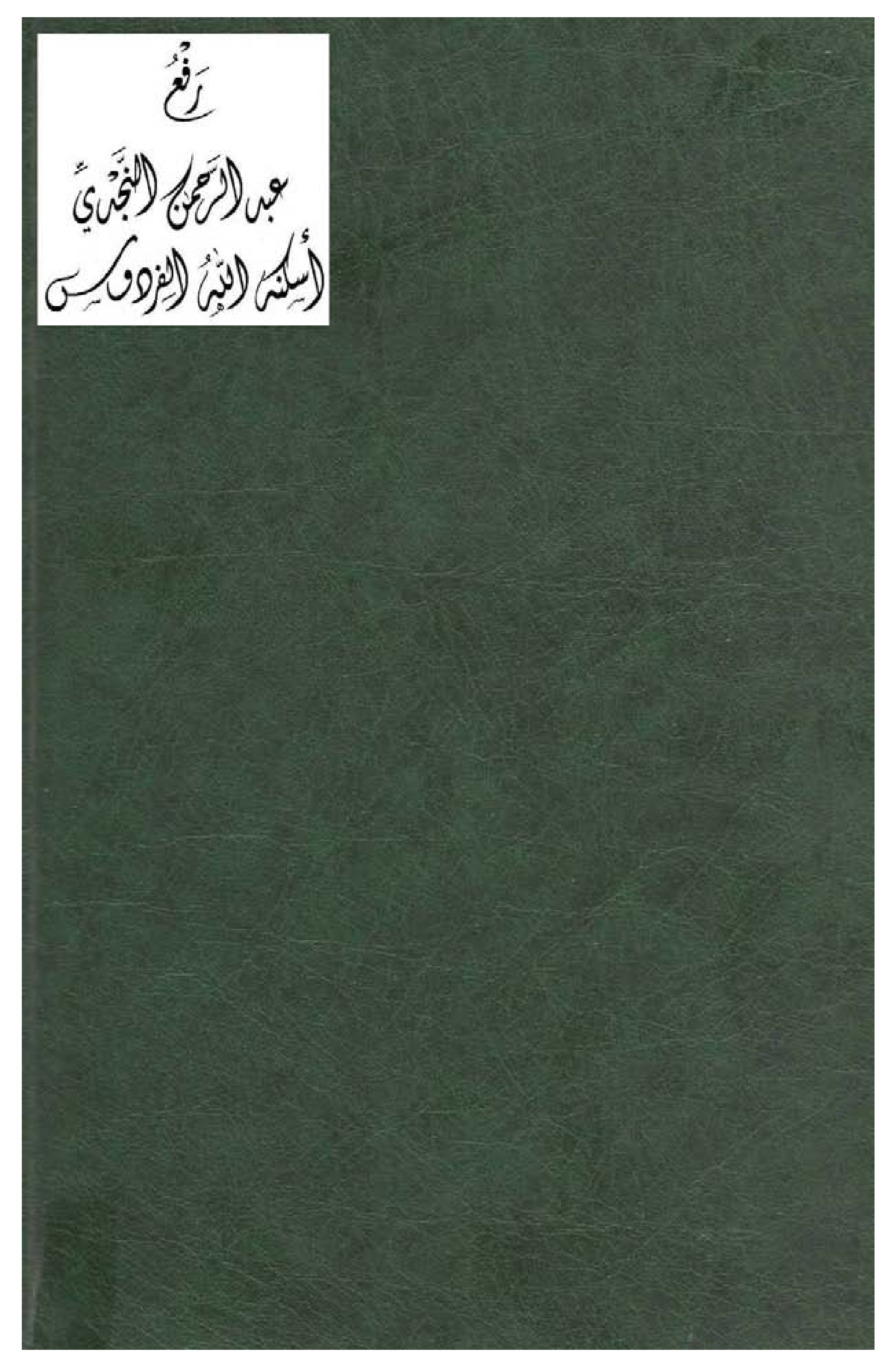


فهرس الفوائد

□□□□□

الفهرس الإجمالي العام

□□□□□


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس